زهير أبو سعد

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the author Zohir Abu Saad.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الكاتب زهير أبو سعد.

عنوان الكتاب: هذا ليس أنا
اسم المؤلف: زهير أبو سعد
تصميم الغلاف: معتزّ عدنان العزّام
مقدمة: شروق المسالخي

الطبعة الأولى 2018 م

© جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للكاتب زهير أبو سعد

رقم الإيداع : 2018/7463
Literar-Mechana

طُبع في مطبعة Expressprint

رواية

هذا ليس أنا

زهير أبو سعد

مقدمة

الكاتب: زهير أبو سعد

العنوان: هذا ليس أنا

نحن لا نكف عن الأسئلة التي تدور في الأنا الموجود بكل شخص منا، ونسأل كيف استطاع الكاتب زهير أن يفصح عن هوية (أنا) التي لا يعترف بها بأوراقنا الثبوتية لكن بالحقيقة نحن الوهميون وهي الواقعية الحقيقية التي تشبهنا لكن الاعتراف فيها كسفرجلة عالقة في الحلقوم وتكادت تخنقنا.....

إننا لسنا نحن حقاً، منذ ولادتنا يسير بنا القدر عكس أمنياتنا أو بالأحرى نعيش وفق أمنيات غيرنا لنبرهم ونعق أحلامنا وطموحاتنا، أقوياء من الداخل لكن أجبرنا على فطرة الخوف والعيب والذي يصح والذي لا يصح وغيرها من شوائب العقول البشرية التي توارثنها عن جهل، وبعدما ينهشنا العمر ندرك أننا لم تعلمنا من الصح شيء وسبله كانت مقطوعة يعوقها التحجر الفكري المرموق كماركة للبلاد العربية. وخذ نموذجاً عن ضحايا هذه البلاد بطل الرواية، كان يراوده الأنا بريشته وألوانه كربيع يزهر أحلامه في قلبه وصدقه النقي الذي لم تلوثه بقعة

كذب ولا ثقب نفاق لكن مع ذلك يجب على صديقنآ أن يحتفظ بما نفسه لنفسه وينفذ رغبة والده ليقف على أبواب المشرحة البشرية ويقال عنه الطبيب فلان نحن أبناء وطن عربي بلاد الدم نحتاج الكثير من طاقم الدكاترة فالأشلاء ترمى على الطرقات وأسرة المستشفايات مليئة بالصراخ وبراداتها تكتظ بالموت فبأي ريشة تحلم وعن أي ألوان تتحدث إذا كان لوننا واحد ألا وهو لون الدم.....

كاتب أقود فينا الجراح وأيقظ الألم، وأعطانا كأس من ورق نشربه لتسكر عقولنا بصفنة لا تخلو من التنهيدات والأسئلة التي ستندفق علينا كالحمم البركانية وتحرقنا ونحن لا زلنا أحياء وتحرق معها محاصيل أمنياتنا وأحلامنا التي زرعها (الأنا) فينا ولم تنبت بعد ولن تنبت فهناك من يزرع لنا ويحدد مستقبلنا وفق رغباته لا رغباتنا.....

هذا غير (أنا) الأنثى حين ينكسر فيها وتصبح أنثى مجردة من كل شيء....، وكرامتها تنزف طيلة وجودها ببيت زوجي خال من الحنين والحب، وكأنها من أهل الأعراف الماكثين بين الجنة والنار أما هنا أمرأة مكثت بين النار والنار لا تستطيع العودة إلى بيت أهلها، ولاهي تستطيع أن تبقى في بيت زوجها.....

الإهانة حين تفرض هيبتها تغرس في القلب راية الانكسار وتصبح حياتها سوداء ضبابية لا ينتظر منها الا بياض الكفن..... لكن إبنها صاحب الريشة والألوان لباها بنقاء الحرم وأكرمها الله بدعواتها حتى أنقلب السحر على الساحر.....

كتاب يلامس القلب بحروفه.

شروق المسالخي

إهداء

{ إلى : أنا }

أَمَام كُل مُنعطف منَ اليأس هُنَاكَ تَكَمنُ الفكَرة ، فكرة لم تَنضُج بَعد ، تَعتقدَ بأَنَها فَلسَفة جَديدة للحَياة ، كُنت فيمَا مضَى تَعتقد بأنهَا الحَياة بحد ذَاتهَا ..

و لَكن اليَأس بَدأَ يُسَيطر عَلى كُل مَا يَجولُ بطَريقكَ ، دَائماً و أنتَ تَسير إلى المَجهول ، أو بلُغَة صَريحة أَكثَر وَقَاحة إلى الحُلم ، تَتَعثَر بالبُؤس و قلة الحيلة ، تُخَيل إلى من يَراكَ بأنَكَ لا زلتَ قَوياً و على قَيد الحَياة ..

هَل رَأيتَ لَقد عَادت مَسَافة الكيبورد إلى الحَياة ، لأَنَكَ مَرهُونٌ بهَا أَنتَ و حُلمُكَ و مُستَقبلكَ و مَاضيكَ ، في الحَقيقة لا حَقيقة هُنَا وَاضحة بتَاتاً ، أنتَ هُنَا جُزءٌ من الوَقت ، و الوَقت يَسيرُ شئتَ أم أبيت ، و كُل يَدورُ حَولَ هَذا الفَلك المُعقد و المُتوازن الذي سُحبَ منهُ الأَمَان ..

الأَمَان كَلمة صَادمة حَقاً في يوم حَار جداً وصَلت دَرجة الحَرارة فيه إلى 35 مئوية ، طَبعاً هَذه الحَرارة لَيست في السُعودية و لا في الهند و لا في مُوريتَانيا ، إنهَا في فيينَا عَاصمة المُوسيقى و الجمَال ..

آه على الجمَال مَا أَجملهُ، ولَكن بَعيداً عن هَذه الحَرارة القَاتلة ..

أَعودُ إلى الحَياة ، الكَلمة المفصَلية لكُل من يُريد أن يُزيلَ عنهُ كُل مَا هُوَ مُظلم ، و نَحنُ فَوق هَذه البَسيطة أعظم مهنة يُتقنهَا

الإنسَان هي مهنة الأنتظَار ، نَحنُ عَلى قَيد الانتظَار ، نَنتَظر الصَغير حَتى يَكبر و الكَبير حتى يَموت و الليل حَتى يَنجلي و النهَار حَتى يَأفُل و المُتزوج حتى يُنجب و المُنجب حتى يَشيخ و الشيخ حتى يَنبت لهُ فَوقَ القُبور اسم ..

نَجلسُ على كُل أَعتاب الحَياة مُنتظرين كُل مَا لا يَتوقعهُ عَقلكَ ، و نُحكمُ هَذه الثُرهَات بمَادة أو كمَاشَة نَحنُ أَوجدنَاهَا كَي نُعلق عَليهَا فَشَلنا ، إنهَا المُعجزة الكُبرى التي أَطلقنَا عَليهَا صفة و اسم التَوكل ..

مُتوكلونَ و متكلون و متكئونَ على أَريكَة القَدَر ، نُخيط تَصَرفُاتنَا بعبارات وَرثنَاهَا من زَمَن الرمَاح و السُيوف أَلا و هي العبارة التي أَبهَرتنَا إلى هَذه اللحظَة من القَدَر :

المَكتوب مَا منو مَهروب ..

و في الحَقيقة لو استَطعنا أَن نَهرُب إلى مَجَرة خَارجَ مَجرتنا لَهَربنَا، ولكنَ القَدَر يَقول بأنَ المسكَّن الوَحيد للذينَ وصَفتهم المَلائكَة عندما قَالت :

أَتَجعلُ فيهَا من يَسفكُ الدمَاء و نَحنُ نُسَبحُ بحَمدكَ و نُقَدسُ لكَ **!** .. كَانَ الجَواب الرَباني بالمرصَاد حَيثُ أَخرسهم :

قَالَ إنَي أعلمُ ما لا تَعلمون ..

نَحنُ نَنتظر و بَقية البَشَرية تَنتَظر تلكَ اللحظة التي يُكشَفُ بهَا الحَقيقة ، حَقيقة الكَون و صَانع هَذه المُعجزة ، طَبعاً كُلُ حزب بمَا لَدَيهم فَرحون ، و جَميع هَذه الأَحزاب التي تَدعي بأنَ مَعَها مفتاح النَجاة يَحملونَ لقومهم صُكوك الغُفران من رَب الأرض و السمَاء ، كَم تَمنَيتُ بأنَني لم أُوجد و لم يَكُن لي أثراً ، و لكنَ جَدتي قَالت لَي :

إنهَا حكمة الله !! ..

و هَل حكمة الله تَقتَضي أن نبحثَ عَنهُ فَي القَرن الوَاحد و العشرينَ بين كومة هَذه الأحزاب التي لا نَعرفُ من أينَ أَتت و من الذي أوحى لهَا !! ..

إنهَا جمَاعَات لهَا طُقوسهَا اتفقت على أَن لا تَتَفق ، و لَكن الاتفاق الأعظم كَان بأنَ إبليس في جَهنم و هُم في الجنة ..

أحسدهُ ذاكَ العفريت المُتكبر الذي أَبى أَن يَسجد لآدم ، و لَو كُنتُ مَكَانَهُ في تلكَ اللحظة لتَفلتُ في وَجه آدم ، و ما صَغرتُ خدي لهُ و لا خفضتُ أنفي لجَنابه ، يَقولونَ بأنَ الأبنَاء يَحملونَ دَم الآباء، تَنحدر بهم التَفاصيل حَيثُ الأحفاد، ولو ألقَيتَ نَظرة على أَحفاد آدم على وَجه الأَرض لتَمنَيتَ أن تَكونَ عفريتاً من عَفاريت إبليس ..

مَخدوعينَ بالتَاريخ و بالمَاضي ، قَالوا لَنَا بأنَ :

المُستَقبل أَجمل ..

وأَنَ الكَلمة و العزة لنَا ، بل تَباً لنَا و لأيدينَا و لمَا جَنَينَا من عَفن المَاضي و أَفكَاره ، تَدخُل إلى مَا تُسَمى بيوت الله في كُل أصقاع الأرض ، بيوت مُختلفة الطراز مُذَهَبة و مُشَيدة و قد أنفقَ عَليهَا أهَلوهَا عباد الآلهة مَا هَبَ و دَبَ من ذَهَب و فضَة ..

من أَجل مَاذَا يَا هَذا !! ..

من أَجل إعلاء كَلمة الله ، إنهُ السُخفُ بَعينه حَيثُ لم يَفهَم هَؤلاء القَوم مُراد الله أَبداً ، حَقيقة رَأيتُهَا بأُم عَيني كُنتُ أَختمُ كتَاب الله في الأسبوع مَرة ، أُقَلبُ صَفحَاته من غَير أَن أَقف على تلكَ الآيات التي تَحضُ على القتَل و الذَبح و التنَكيل ..

في نهَاية الآيات كَانت تُختتم أحاديث الرُعب بمَرهم كَي أصمت ، كَلمة أو كَلمَتان تُخرسني عندما يَقولُ الله :

إن الله غَفوراً رَحيماً ، و رَحمة الله وسَعة كُلَ شَيء ..

و هُلمَ جَرا ، وقعَ في يَدي الإنَجيل ذَات صَيف ، كَانت تَقول أُمي في تلكَ الأَيام الحَارقة :

أَبعدنَا اللهُ عن نَار جَهنم ..

و كُنتُ أَستمعُ إلى أَحد دُروس الدين في مَسجد الحَي بأنَ قَراءة غَير القُرآن إثم و إضَاعة للوقت ، و إن كَانت كُتُب سمَاوية فَتلكَ

و لعَمرهُ لشَيءٌ عَظيم عندَ الله و غَضَب و مَقت تَنزلُ على صَاحبه لأن تلكَ الكُتُب مُزورة و مُحَرفة ..

كَانت قُطعان الخراف في المَجَالس تَهزُ رَأسهَا و تُتَمتم بفمها التي كَانت تُسَبحُ بَحمد الله أن أَستغفر الله من غضَب الله ..

و كلمَا اتسع الإدراكُ و فهم مَا يَجري من حَولي من وَهن و وَهم ، تَكَالبت عَليَّ الهُمُوم لأَنَني في الحَقيقة ليسَ عندي تلكَ الفطنة لإيصَال الحَقيقة لغَيري..

كُنتُ على يَقين بَأنَ غَيري لنَ يتَقَبل تلكَ التَفاهَات طَبعاً بنَظره و إنمَا بنَظري هي قمَة الحَقيقة ، و لكن سَوفَ أَحاول مع ذَاتي و قنَاعَاتي بأنَ تلكَ الفَلسفة هَي الحَقيقة الكَاملة..

مُواجهة الذَات أَمر خَطير جداً مع تلكَ القُطعَان التي تَهزُ برأسهَا عند كُل مَحفَل ، تَجدُهُم كُثر قَد أَصَابهُم الوَهَن و الجُنون ، أَي جُنون العَاطفة..

قَالوا لي ذَات تَجمع لَقد جَمعنا اللهُ على مَحَبته..

كُنتُ أستمع لكَبيرهم الذي عَلمهم الجُنون ، و أَرى رُؤوسَهُم كَيفَ تَهَتزُ تَصديقاً بكَلام الآلهة التي تَنطقُ أو بلغُة أَحرى بمن جَعلهُ نَاطقاً رَسمياً عن الآلهَة..

المسَألة لا تَحتاجُ إلى مُعجزة أَبداً.. !!

إذاً مَا الذي بحَاجة إليه ؟

إلى كُرسي خَشَبي مَنقوش بطَريقة شَرقية ، و ثياب مُمَيزة و مُلفتة للانتباه ، و لسَان رَطب بذَكر الله ، أَراحنَا اللهُ منَهم ، و طبعاً أَنتَ لسَتَ مُجبراً على الاستمَاع أبداً ، و لكن أَنتَ مَفروض

عَليكَ بأَن تَأتي كَي تُحسَب على لَفيفَ المُؤمنين و تَتَبرك بصَاحب الوَجه الصَبوحي..

أنتَ حَضَرت ! .. إذاً أَنتَ مُؤمن.. !!

و إن لم تَحضر سَوفَ تَبقى تُبرر للنَاس دَهراً بأنَكَ كُنتَ تَحتضر و رُبمَا على فراش المَوت ، هُنَا و أَمَامَ الشَاشَة الزَمَنية للرُعب لأنَك سَتقع في شُكوكهم..

هَذا الكَوكب فَارغ جداً..

نَحنُ نَدورُ في حَلقة مُفرغة ، حَلقة وَهمية كَالحة بالظَلام و الاستبداد ، شُعوب مُروضة على البَحث على كُل مَا تَحتَاجُ لهُ لَيسَ اكتفاءً و إنَما طَمعاً و شَرهَاً بمَا عندَ الغَير ، السَبب بأنَ العُيون جَائعة جداً ، و بحَاجة إلى مُحيط من الديدَان كَي تَلتهمها ، و لكن قَالت القُبور ذَاتَ مَوت:

هَل من مَزيد!..

لا أَحد يُحب الرَحيل ، كَلمة الخُلود هَي الجُندي المَجهول الذي يُطلقهُ أصحَاب البَصمَات الخَالدة ، الشَر يَخلد و الخَير يَخلد كَمَا أَنَ صَاحب العَمل الصَالح الذي غَيرَ تَسميتهُ أَرباب الإيمَان من عَمَل إنسَاني إلى عَمل صَالح ، كَذلكَ هُنَاكَ الشَر و أهلهُ لقد تَركوا بصَمتهم المُدمية على كُل شَارع و في زقاق كُل حَي..

بصَمَات أَستَحي أن أكُتبهَا على هَذه الصَفحَات البيضاء ، لأَنَني في الحَقيقة هَذا الذي يَكتُب اليَوم هُوَ:

لَيسَ أنَا .. أو هَذا لَيسَ أنَا..

جُنون الذَات يسأَل دَائماً إذاً من هُوَ ذَاكَ.. !

إنهُ هُوَ ، من أَهل التَجرُبة ، أَهل الاختلاط بالبَشَر و الحيوان و الحَجر ، سنهُ ما يُقارب 31 عَاماً و 9 أَشهُر و طَعنة ، أو بلغة أصَح 40 طَعنة..

طعنات لا بُدَ أن أَدونهَا في مُذكراتي..

نَعم أُريد أن أَموت هَذا شَيء سَوفَ يَأتيني أو لعَلني أَنا ذاهبٌ إليه أو لعَلنَا سَنَلتقي على مُفترق القَدَر ، و لكن لَيسَ قَبل أن أُفرغ ذَاكَ الكَائن الذي تَرونهُ أَمَامكَم في كُل مَحفل أو خَلفَ كُل منضدة ، إنهُ ذَاكَ المَخلوق المُتقلب المزاج الذي لا يُطَاق ، تلكَ النُطفة التي أَكرهُ أن أَظهرَ بهَا أَمَامَ أَغبياء البشَر.. !!

سَتقولُ لي و كَيف تَظَهر أَمَامهم.. !

خُذ مَثلاً ، أَعيشُ في الدَور الثَاني في أَحد أَحياء فيينَا ، الشَقة التَي فَوقَ شَقتي تَمَاماً يَعيشُ جَاراً وَقح جداً ، جَاراً أَكرهُ رُؤياهُ ، مَوعدي مع النَوم في كُل يَوم السَاعة العَاشرة مَسَاءً، في الحَقيقة أَنَا أُحبُ السَهَر و لكن عملي المُبكر يجَبرني على اتَخاذ الفَراش مسَكناً في وَقت مُبكر..

أضَعُ رَأسي على الوسَادة ، أَجمعُ شتَاتَ الخراف في خَيالي، و أَحبسُهَا في الزَريبة و أبدأُ أَعُدهَا خَروفاً تلوى الخَروف حَتى يذبُل جفناي و أَقعُ طَريحاً مُستَسلماً للنوم..

المَشهَد لَيسَ في النَوم بتَاتاً..

المَشهَد في الصَوت الذي ينَحدرُ من الشَقة التي تَعلو شَقتي ، عَزفٌ قَوي جداً ، و طبول و أبواق و ضَحَكات مُرتَفعة ، و ضَجيج يَنحدرُ إلى جُدران شَقتي حَتى يَهتزَ سَريري ، أصرخُ بصمت حَتى أَسبَ تلكَ اللحظة التي تَخطت قَدَمي أَعتابَ الغَرب ..

أَحاولُ أَن أَعزفَ للبُوليس ، أُمسكُ هَاتفي المَحمول ، أُخرجُ رَقم البُوليس ، يَقفُ خَلفَ الشَاشَة صوت بنت جَاري اللطيفة ذات الشَعر الأشقر و العيون المُتورمة بالزُرقة و الخُدود الخَريفية المُشمشية..

آه مَا أَجملهَا و أَبهَاهَا..

ابنتهُ ذَات الأَربعة أعوام ، هَل تنَامُ الليلَ مثلي الآن أَم أنهَا مثلي أَيضاً ضَحية لهَذا الإزعاج ! ، تَباً للضَجيج و قَوافل المُزعجينَ الذينَ لا يَحترمونَ راحةَ الآخرين..

المَشهد هُوَ مَشهد الصَباح البَاكر عندما تَطرُق عَيني بعينه ، يَحملُ بَيده مشروب الطَاقة الذي أكرههُ يَهبطُ من المصعد

الكهرُبائي مُبتسماً للحَياة ، مَوعدي و مَوعدهُ بالخُروج إلى العَمل مَعاً و لكنهُ يَأتي قَبلي:

صَباح الخَير أُستَاذ.. !

صَباح الخَير ميخَائيل.. !

كَيفَ حَالكَ اليَوم أَستَاذ.. !

بخَير شُكراً لكَ..

تَباً لي و للطفي ، كَيفَ سَمحتُ لنَفسي أن ابتسمَ لهُ ، و أُلقي على مَسامعه تَحيةَ الصَباح ، تَباً لهَذا الصَباح الذي أَخرجُ به كُل يوم مُرهقاً و مُتعباً من ضَجيج الجَار الغَير مُحترم أَبداً.

في الحَقيقة هَذا ليسَ أَنا أَبداً..

أَنا ذَاكَ الشَخص الذي أَلقى كَتاب السيرة النَبوية في وَجه أُستَاذ السيرة في مَعهد بدَر الدين الحَسَني و قَالَ لهُ:

تَباً لكَ و لدَرسكَ أَيهُا الأَستَاذ القَذر ، بَينكَ و بين صَاحب السيرة العَطرة أَلفَ سَنة زَحفاً عَلى بَطنكَ..

و طَرقتُ بابَ القَاعة بشدة خَلفي و تَركتهُ للذُهول مع بَقية قُطعان الغَنم من طَلبة العلم الشَرعي الذينَ لا يَعرفونَ من تَلق العلم سوى حفظ النصوص من غَير أن يتَدبرونَ أو يتَفكرونَ في مَاهية النَص و أَبعاده الإنسَانية..

هُنَا الإنسَانية مَفقودة تَمَاماً و لن تَجني منهَا سوى قَوله تعَالى:

و إنكَ لعَلى خُلق عَظيم..

أَمَا الأَتباع يا حَبيب أُمك لو تَرى الأتباع.. !!

شَيء مُخزي حَد الغَثَيان ، أَنا هُوَ ذَاكَ الذي خَالفَ رَأي أباهُ عندما كنتُ رسَاماً بعُمر ألوان الحُب و فَرضتُ عَليه عَمهُ كَي يتوسطَ لي عندهُ بأن أذهب إلى المَدرسة الشَرعية كَي أتلقَى الخُلق العَظيم من وَرثة صَاحب الخُلق العَظَيم ، خُدعتُ بالوجوه المُغطاة بالنَفاق ، لم أستَسلم لهُم أبداً و لكن تَمنَيتُ لو أَن أبي أشبعني ضَرباً و لم يأخُذ برأيي و يُرسلني إلى زَريبة المعاهد الشَرعية في العَاصمة دمشق ، و لكن مَا الفائدة.. !

الفَائدة بأنهُ هَذا الشَخص ليسَ أَنا ..

هَذا لَيس أَنا..

نَعَم هَذه حَقيقة أكتُبهَا للتَاريخ..

رُبَما سَتَقول عنَي بأَنَني مَجنون ، و لكَن الجُنون أَن تَقع في زَريبة مُشبعة بالأدمغة المُغلقة و من ثُم تُصدق الكذبة التي عشتها و تَبقى على النَحو ذَاته ، و لكن إلى أين يَا تُرى.. !!

المَجهول المَحتوم يَنتَظركُ يَا حَبيب أَباكَ..

إنهُ لَيسَ مَجهول و حَسَب بَل إنهُ ظَلام و ظُلمَات و ظُلم سَتَظلم به ذَاتكَ إن لم تَستَيقظ من الزَحف و خَلفكَ أذيال الجَهل و التَخلف..

تَجلسُ بَينَ الرُؤوس المُضلعة التي إن فتَحتهَا سَوفَ تَجد بينَ طَياتهَا بَرسيم ، و البرسيم أنتَ و أَنا و جَميعُنَا يَعرفُهُ ، نَوعٌ كُنَا نَعلفهُ للحَمير و البَقَر ، و أضحى مَنتوجاً عَالي الجَودة يتنَاولهُ بَني البَشَر على أَرض النفاق و التَخلف..

مَسَاحة بلون الدَم وَصَل أَهل المنَاصب و الرَايات الوَطَنية إليهَا بأَطنَان مُطَنَنة من أَرواح الضعاف ، لا عَلينَا يا حَبيبي لأنَ من رَحَلَ قَبلنَا في سَبيل الوَطن كَانَ ضَحية للكماشَات و المَافيات التي التي تَلتهمُ الوَطن و المَواطن و على عَينكَ يَا تَاجر..

و حَتى التَاجر حَقهُ مسحوق و مَهضوم و مَسلوب و على مَرأى الرَأي العَام و الخَاص و الدُولي ، إلى الذينَ سَبقونا بالدَم بالله

عَليكُم لا تَخرجونَ من لُحودكُم و تَرونَ مَا الذي جَرى من بَعدكم ، لأنَ العَمَالة فَاحت ريحُهَا و الخيانة استَفحَلت في صدر الكَبير قَبل الصَغير و الوَطن أضحَى عُرضَة للَبيع في مَزَادَات الدُوَل المُستَفيدة ، أَعني بأصَدقاء أَو بالأحرى حَرامية الوَطن..

يلعن أبو هَالوطن شُو بدُو يَستَحمل لَيستحمل.. !!

مَا عَلينَا بابا ، المُهم أَنَني أَنتَمي إلى وَطن على رُقعة العُروبة الكَاذبة التي أَشَبعُونَا بهَا ضَرباً و خُنوعاً ، أَلزمونا أن نُصَفقَ للوَحدة العَربية الاشتراكية ، و إذا أَلَقَيتَ عَلينَا نَظرة لوَجدتَ بأنَنَا لا زلنَا نُصَفقُ لمُغتصبينَا..

هَل رَأيتَ زَوجاً يُصَفقُ لمن زَنَا بزوجته.. !!

تَعال إلينَا و شُوف يا حَباب ! ، لا يُوجد دَاعي لأَضربَ لكَ الأمثلة واقَعنا أَشبهُ ببيت دعارة و كُل من بهَا من عُمَال مَعروفينَ للقَاصي و الدَاني مُبتدأً من رجَال الدين الكَلاب إلى السَاسَة أصحَاب المعالي و الجَلالة و التَبجيل..

طَبعاً هَذا الكَلام لا أستَطيع أَن أَكتُبهُ على تلكَ الرُقعة المنسوبة إلى الأُغنَية التي تَقول:

بلاد العُرب أَوطَاني..

من الشَام لبغَداد..

وهَلُم جرا من كذبة لا زلنَا نَكذبُ على أَنفُسنَا بهَا و نُصدقها، فشُكراً للمسَاحة في أَرض الأَحلام الأُوروبية التي جَعلتني أَكتُب من غَير أَية رَقيب أو عتيد ، هُنَا لا أَكتُب لأَفضَح بل أَكتُب لأُشفى..

فممن سَوفَ أُشفى.. !!

من عُروبتي و الخُدعة التي عشتُهَا على مَدار ثمان و عشرينَ عَاماً تَحتَ الاحتلال الفكري ، فنَحنُ و لله الحَمد كَمَا عَلمنا رجَال الدين و كلاب أَهل النَار بأَن نشكُر الله في السَراء و الضَراء ، لَيسَ فقط مُحتلون يا حَبيبي..

و إنما هُنَاكَ آثار وَاضحة و أَقوى من عَين الشَمس نَستُرهَا بقُماش كَي لا تَبان ، و إن بَانت فَتلكَ فَضيحة عَظيمة ، لأَن الكَشفَ عنهَا عَورة ، نعم عَورة يا عَين أُمك..

المُؤخرات المُورمة التي تَجُوبُ الشَوارع العَربية ، المَداحل ذَات البُطون المُنتَفخَة ، الوُجوه المُنتفخة بالخُدود المَعجونة بالسُمنة ، المَطَاعم الأَكثر رواجاً من المكتبات و دُور العلم ، مَحَلات الحَلويات و الهَواتف الذَكية ، دُور السينما و المَقاهي التي تَضجُ بالدُخَان و الشيشة ، عيادَات التَجميل و الأَقنعة للوُجوه القَبيحَة ، الوُجوه المَصبوغة و المَدهونة بالمُبيضات ، الحجَابات المُلونة و النفاق المُعتاد ، العَادَات و التَقاليد التي مكانهَا الصَحيح في سَلة

المُهملات ، الأَديان ذَات الطَابع المُشبع بالخَديعة و المَكر ، المُسَلسلات و الأفلام الكُوميدية و الدَرامية ، و الوَطن.. !

الوَطن يَلعن أُمهُ..

أزمة حَالكة في طَريق التَخلف و الانحطاط ، الحَشَرية و التَدخُل في شُؤون الغَير ، المُشَاحنات و المُشَاجَرات على أتفه سَبب ، السُجون و المستشفيات و البُوليس شُغلهُم الشَاغل لفَض ثَورات الحمَير التي لم و لن تَنتهي ، الدمَاء المُستنزفة في أَزقة الوَطن من أَجل قَضَايا الدين و العُرف و الشَرف ، دَوائر الدَولة و الرشاوي و ملفات الفَسَاد ، دُور القَضاء و القُضَاة الفاسدون و مَلفات البشَر التي تَنامُ في خزانَات اللصُوص أَعوام مَديدة و أَيام في ظَنكم سَعيدة..

في الحَقيقة سَعيدة و أُخواتهَا السَبع مَاتوا مُنذُ أَن وُلي على خراف الوَطن حَمَيراً على شَاكلة بشَر..

لم يَنزل المَرض عَلينَا يا بابا.. !!

كَلا .. من قَال لكَ بأنَنَا مَرضَى فَهناك لدَيه إعاقة عقلية ، و في رواية رجَال الدين : فَهناك عَدواً لله و لمُحمد و للمَسيح ، و في رواية رجَال الدَولة : فهناك خَائن مُستَعمر غَاشم عَدواً للوَطن و قَضَايا الدَولة ، و في رواية الصَحَافة و الرأي العَام : فهناك نَذَلٌ عَميل أَتى كَي يُشَيع الفتنة بينَ أَبنَاء الوَطن..

لو سَألتني في أَي وَقت..

ما هُوَ الشَيء المشهور عندَكم !؟..

الجَواب مُؤلم و لكَنها حَقَيقة ، نَحنُ نُجيد صنَاعة الشَمَاعَات كَي نُعلقَ عَليهَا ثَيابنَا المُتسخة و فكَرنَا العَقيم الذي لا يَصلحُ أن يَكونَ ممسحة في مَمَرات بُركينَا فَاسو..

هَذا لَيسَ أنَا..

اسمٌ لروَاية صَنعتُ منهَا شَمَاعة كَي أُقنع عُقال العُروبة بأنَني مَجنون بامتياز ، و هُم العُقلاء أَبنَاء العُقلاء من صُلب عمَالقة العَقل و المنَطق و أنَا من صُلب الجهَل و التَخلف..

كَيفَ لأُمة أشَبعتنا مُحاضَرات و نَدوات و دُروس دين و إلحَاد أن تُحَاربَ عَدوهَا و عيدان كبريتهم من مَصَانع عدوهم.. !

قَررتُ أن أَلتحقَ في صُفوف العَدو لعَلي أَن أَعيشَ حَقيقة الوَهم الذي أغرقني على مَدَار ثَلاث عُقود من الزَمن ، هل هَذا عَدو بحَق السمَاء.. !

أَرضٌ مُحتلة كما قيل ، عُمرهُا ثمانينَ عاماً ، قَالوا لَنا بأَنها مُحتلة و مُغتَصَبة و مسَلوبة ، عَرفنَا من بعَد عَهد من الكَذب و الخيانة بأنهَا بيعت تَحتَ طَاولة جَامعة الدُوَل العَربية ، و سَوفَ أُصفق لهَذه الكَذبة و أقول كمَا يَقول قُطَاع الطُرق:

حَلال على الشَاطر..

المُهم فَبيت القَصيد بأنَ تلكَ المسَاحة المُحتلة قَامت على الحَضَارة و المعامل و المصَانع و الثَكَنات العَسكرية التي تُجدد كُلَ عَام و لو شَاهدتَ مَخَازن الأسلحة على أرض النفاق و أهَل النفاق لرأيتَ العَجب العُجَاب..

لم يبق طَيرٌ في السمَاء و لا دُود في جَوف الأرض و لا حَشَرة مَرئية أو غَير مَرئية إلا و بالت و تَغوطت على تلكَ الثَكَنات التي جُهزت لجَلد و قتَل و سَحق الشُعوب..

أنَا قَررتُ أن أَلتحقَ بأَرض العَدو..

لعَلي أَجدُ بهَا بَقيةَ كَرامة، أو رُذاذَ شَرف، أو مَنفذ أَتنفسُ به أُوكسجينَ الحُرية، أو أرى بهَا الشَمس تَظهرُ بشكل جَميل.

في الحقيقة هَذا الذي يَكتُب ليسَ أنَا..

لقد عَرفتُ بَأَنَني لستُ أَنَا عندما عَرفتُ بأنَني أَنا!

أَن تُجيدَ الفَلسَفة على بُقعَة مُكبلة بالعُقد و الخَيال هَذا يَعني بأَنَكَ لا زلتَ على قَيد العَقل و للجُنون روَاية أُخرى غَيركُ من يَصنعُهَا لكَ و عَلى حَسَب مَاضيكَ و مَا تُخَططهُ لمُستَقبلكَ..

حَسناً عندما كُنتُ أَسوأ طَالب في الصَف بل في أَحد المَدارس الابتدائية ، و عندما كُنتُ أَسرقُ أَصابع الطَبشور لأُزَين به شَوارعَ الحَي ، كَانت تُعجبني تلكَ الأَصَابع النَاعمة ، و رُغم خُشُونة الشَارع المُرقع بالزفت و المُتكسر الأَطراف ، كُنتُ لا أَرحم تلكَ الأَصابع أَبداً حَيثُ لم يَبق وَجهاً أَعرفهُ أو أَكرههُ أَو أُحبهُ إلا وَ رَسمتهُ ، لم يَكن يُعجبني لَعبَ صَبية الحَي لأَنني أُصَنفُ من فَصيلة الطَباشير النَاعمة و الظل الخَافت و الشتَاء القَارص..

كُلَ الفُصُول في عيون الصبية في كَفة و فَصل الصَيف الحارق الذي يَلسعُ بشرتهم في كَفة أُخرى ، تَباً للكَفة الأُخرى لأَنهَا أَغلب مَا كَانت تَرجح و تَكبرُ و تسُمنُ تَحتَ قُرص الشَمس ، من لي غَير الظل لَيحمي حميتي للشتَاء في ذَاكَ الفَصل الطَويل الأَمد..

أَكرهُ كُل مَا كَانَ يَدورُ في فَلكه ، كَتنور جَدَتي التي كَانَت تُخرجُ منهُ الخُبز البَلدي ، و بَيت النَار الذي يُغلى فَوفقهُ النار ، و مدفَئةُ

جَدي التي تَلتهُم حَطَبَ الحُقول ، و غَير ذَلكَ من صفات تَنطبقُ على جَهَنم و أَخواتهَا..

أَنَا لَستُ من أَخواتهَا أَبداً..

أَنَا أَحدُ أَخبارهَا التي تَأَتي بَعد كُل كَان، وهَل تَقصد بخَبر كَانَ! ، نعم خَبر كُل شَيء نَاقَص وبحَاجَة لشَيء يُوقفُ عَجزهُ و انحنائهُ، لا شَيء يُسعفُ الكَلمَات في هَذا الوَقت المُقرف مَن كُل سَنة سوى أَن أَرسُم عند كُل مَغيب شَمس، لأَجوبَ الشَوارع الخَالية من أَرجُل الفُضوليين وأَحمَلُ تلكَ الأَصَابعُ المَسروقة حَيثُ الأَمد..

سَوفَ تَقول لي بَأنَني لَصٌ بامتياز..

و لتَقُل يَا سَيدي.. !

لنَ تَنفَعُكَ اتهامَاتُكَ لَي و ثَلاث أَرباع وَطنكَ مَنهوب من قَبل من تُقبلُ أيديهم و أَرجُلهم لَيلاً نَهَاراً ، أسرقُ ما نُهَبَ مني لأَرحَل حَيثُ تلكَ المَسَاحَات المَشوشَة للمُشَاة ، و كلُنا مُشَاة على أرض يَعتَقدُ الأَقربونَ و الأَبعدون بأنهَا لنَا ، كَذبنَا على أَنفُسنَا ذَات تَاريخ عندما نَسَبنَا دمائنَا لهَذه البُقعة المسلوبة بالمَصَائب ، و لا زلنَا نُصَدقُ تلكَ الكَذبة من أجل أن لا يَغضبُ عَلينَا الرب.. !!

الرَبُ مَشغولٌ بالضعاف يَنظرُ إليهم نَظرة شَفقة و لا يستَطيع أَن يَقفَ معهم ، إنهُ منطقَ العَقل ، و منطقَ الإيمَان أن الرَب لا

تَأَخُذهُ سنة و لا نَوم ، و مَنطقي أنَا و كمَا تَقول الكَلمَات بأنَني أَنا ليسَ أَنا.. !!

إذاً من أَكون.. !

أَنَا ذَاكَ الصَبي الذَي كَانت تَحُضرُ لهُ أُمهُ البنطَال المُنخفضَ الثَمن من أَحد الأَسواق الشَعبية ، و من بَعد ذَلكَ تَأُخذُه إلى جَارةَ الحَي كَي تَقُوم بكَفه أَربعة كَفات و تُخيطهُ حَيثُ كُلمَا على طُولي فَكت الخَياطة كَفة فَكَ اللهُ رَقبتهَا ، كُنتُ أشتعلُ طُولاً عَاماً بعدَ عام ، و كَانت أُمي بين كُل عَام و عَام تَأُخذُ بالبنطَال كَي تَفكَ منهُ كَفة ، أَنظُرُ إلى الكَفة المَفكوكة و أَطراف الخَيط قدَ بانَ منهُ أستَحي من نَفسي و أَترديه أَمَامَ الصبية ، أَشعُر بالخَجَل من نَفسي لا أَجرأ على مواجهةَ أُمي لأَنَهَا كَانت تَقول دَائماً في مَجَالس النسوة:

العَين بَصيرة و اليد قَصيرة..

الوَضع الاقتصَادي مُزري جداً ، أَو مَا فَوقَ الجداً ،ومعنى جداً بالنسبة لنَا أَي بلغة العَوام : عُزره..

كُنتُ أَشبُ بينَ المصَائب التي تَتَكالبُ على رَأسي أَبي شَيباً ، و كُلمَا كَبرتُ عاماً كبُرت مَصَائبنا فَوقَ رَأس ربَ البَيت ، و رَب السمَاءَ يمدُ للظَالمينَ مداً ، كُنتُ أَراهُ كَيفَ يمُدهُم بالمَال و

السَيارات الفَارهة و القُصُور و الخَدم و الحَشَم ، و كَانت جدتي تَقول:

إنَ الله يُمهل و لا يُهمل..

فعلاً لم يَكُن مُهملاً لهُم ، يَعيشونَ أَفضل من حَياتنَا ، و أَولادُهم و رُغم غبائهم يَتنعَمونَ في مَدَارس أفضل من مَدارسنَا ، و كُل هَذا النعيم الذي يبتعدونَ بَه عن الله ، و يسرقونَ و ينَهبونَ لقُمةَ الغَير إلا أَنَني أَرى جَدي و جَدَتي و أُمي و أَبي في كُل فَجر كَيفَ يستَيقظون و يَتَوضؤونَ و يُصَلونَ لله ، بينَمَا جَيراننَا الظَالمونَ كُنتُ أَستَمعُ إلى سَيارتهم بعد الفَجَر تَصطفُ أَمَامَ أَبواب منَازلهم قد أَتوا من حَفلات الهَوى و المُجون و السُكر و النسَاء..

كَانَت المعادلة قَاسية بينَ من تَقربَ إلى الله شبراً و بينَ من ابتعدَ عن الله باعاً ، حتى أتى ذَاكَ اليَوم الذي تَخرجت به أُختي الكُبرى من التَوجيهي حَاملةً العَلامة التَامة على مُستوى المُحَافظة..

يُقال بَعد أَن بَكت أُمي بأنَهَا سَتدخل الطب ، أو لعَلهَا تَذهَب منحة على حسَاب الدَولة إلى باريس كَي تدرُسَ الطب هُنَاك، فهَل أَبي سَيمنحها تلكَ الحُرية أَمَام قَانونه الذي كُنتُ أَسمعهُ ليلاً نهَاراً:

المَرأة بحَاجة إلى مَحرم..

أَلقى أَبي بقانونه ظَهر الحَائط عندما جَاءت إليه الدُنَيا زَاحفة حَافة عَارية ، و جَهزَ حَقيبتهَا للمنفى و بتُ أَستمعُ إلى ذَاكَ الدَرس الذي نَخرَ دمَاغي لَيلاً نَهاراً و هُم يَقولونَ لي:

يَجب أَن تَجتهد كَي تَكونَ طَبيباً مثل أُختكَ..

أَنتَ ضَحيةَ غَيركَ تَمَاماً ، يَجب أَن تَكونَ رُغماً عن أَنفكَ كَي لا يُقال بأنَ بَالبَيت عندنا فَاشل ، و من أَجل أَن أُسكتَ فنَانَ الشَوارع الذي جَابَ شَوارع المَدينة بطباشيره وَقفتُ وَقفة صدق مع الصَيف و قُلتُ:

هَذا لَيسَ أنَا..

كَيفَ تَكون أَنتَ بينَ خراف تُريدُ أن تُقدمكَ للذبح قَبل أَن يَنضُجَ لحمكُ و تُكونَ صَالحاً للذَبح ، كَان خَالي يَقول لَي لا تَكن فَاشلاً في هَذه الحَياة ، على هَذه الأَرض المَعركة خَطيرة جداً ، إن لم تَدُسهَا فستدوسكَ و تُنهكك و تَجعَلكَ هَباءً منثوراً ، كُنتُ أنظرُ إليه و هُوَ ينصحني و يُلقي عَلي المواعظ و يَقصُ و يُخيط و يَجعل من كَلامه هَيبة لعَلهُ يُجدي بنصائحه التي لم تَعُد تُهمني..

كَانَ خَالاً فَاشلاً بامتياز ، و كنتُ أَفوقهُ حكمةً و حنكة ، خَالاً أَمضَى عُمرهُ من مَصلحة إلى مَصلحة و من دَولة إلى دَولة قد اتخذ قَولهُ تعَالى:

ألم تَكن أَرضُ الله وَاسعة فتُهَاجروا..

فَقد تَركَ خَلفهُ أَبوَين أَبكَاهُما دَهراً و جَعل من دُموعهم بَحراً، وخَاضَ بأموال أَخواته وتَعبَ أَبيه الذي شَقَى به واستَنفذ جَميع طَاقته كَي يَعيشونَ أُنَاس مُكرمين، فأرسَل اللهُ لهُم من يُهينهم على حَافة العُمر ويَجعلُهم يَبكونَ ويتَباكونَ..

الخَالات أَضحين مَسؤولات عن أَبوين مُتعبين قد سُرق من قَلبهمَا الحَنين و الأمَان..

هَل يَبحثُ ابنُ آدم عن الأمَان بَعد هَذا السن من الوَهن! ، كُنتُ استمعُ إلى آيات يُرتلُهَا جدي الذي أَضحى ضَحية من ضَحَايا ابنهُ العَاق:

أَتَأمرونَ النَاس بالبر و تَنسونَ أَنفسَكُم و أَنتم تَتلونَ الكتَاب .

جبانٌ أَنتَ تُريدَ العيشَ كَما يُريدُونَ..

لا تَستَطيعَ البوحَ بمَا تُريد..

تَخشَاهُم و تَخشَى مَا يُريدُونَ..

أَنتَ مَحو الإرادَة ، مَسلوبٌ منَكَ كُل مَا تَشتهى ، تَظنُ في نَفسكَ بأنَكَ تَصنعَ مَجدكَ بنَفسكَ ! ، و بالأَحرى أَنتَ تَصنعُ غَيركَ بغَيركَ ، ليسَ من أجلهم بل من أَجلكَ أنتَ..

ومَاذا تُريد أَنتَ يا أَنتَ !؟..

أنتَ تُريد غَيركَ لا أَنتَ ، إنهُ منطق الحَياة ، أَن تَعيشَ منَ أَجل الآخرين، والآخرينَ لو تُريد أن تَبحَثَ عنهُم لَوجدتهم تَحتَ الأَرض يَخلدونَ ظاناً بأنهُم في نَعيم، و أَن بَصمتهم النُورانية على حَائط الأُمة يسيرُ عَليه الظالمون، أنتَ و هُم من الظالمين، و غَيركَ ممن أَتخذ من السَاعة مَوقف أن لا حَياة إلا لي هُوَ ذَاكَ الأسطورة..

يُقَال بأنَ الأُسطورة يأتي في الوَقت الذي يَكونُ النَاسُ كالخراف يَنعقون و يحومونَ حَولَ رُكن وَاحد ، هُوَ وَحدهُ من كَانَ يُجدفُ بعكسهم و يصيحُ بغَير ندَاءهم..

أَنتَ وَحدَكَ من سَتَصنعَ لنفسكَ أُبهة النُور..

حَسناً و غَيري.. !

إنهم سَراب بسَراب..

لا زلتَ تَسرق طَباشير الجبص المُلونة من خَزانَة مُعلمتكَ ، تُلقي بهَا في جَيب مَريولكَ المَدرسي ، و تُلقي بنَفسكَ خَلفَ سُور المَدرسَة و تَجري هارباً نَحوَ الأزل..

أَنتَ الأَزل عندما تَركت للنُجوم عَدادهَا الخَيالي ، تَعدُ و تَهدُ من صباكَ إلى قوَاكَ ، و كنتَ تَحسَبُ بأنَكَ جُرم صَغير انطوى فيكَ العَالمُ الأَكبرُ..

فَأنتَ في الحَقيقة خَليطٌ بينَ الظَن و اليَقين ، تَجري بحذائكَ المُهترئ نَحوَ الهَواء الطَلق تَخشَى أَن تَقعَ بينَ فَكي مُوجهة المَدرسة ، لم يَكُن في البَيت شَخصٌ كَسول ، أخذتَ هَذا الشَاغر أَنتَ ، و وَضَعتهُ منهَجاً لكَ ، و لكنَ الله لم يُعط لكَ هَذا الثَوب لكَي يَكونَ على مَقاسكَ..

نَفثَ أَباكَ في أُذُنَيكَ ذَات هُروبٌ من المَدرسة:

ـ هَل خَرجَ الجَميع من المَدرسة.. !

لم تَكذب و لم تَكن أنتَ الذي يَكذب ، لم تُلق الأَدب من أبوَيكَ بهَذه الطَريقة في المَكر و الخَديعة ، فَالكَذبُ في دُستور البَيت جَريمة يُعاقَبُ عَليهَا الأَبُ ثُمَ الأُمُ ثُمَ الأَخُ الأَكبر ثُمَ الضَمير..

و لكَن لو كَانَ الضَميرُ في الدَرك الأَسفل من اللون الأَحمر!

فَلا ضَير صَديقي ، فَانطَق الحَقيقة:

ـ لَقد هَربتُ من المَدرسة!!

يجَب أَن تُراجع ما نَطقهُ لسَانكَ ، يَجب أَن تَعُد للمئة قَبل أن تَنطَقَ بعُلوم النُجوم ، إنَ الصدقَ في تَقديركَ نَوعٌ من عُلوم النُجوم ، اليَوم أَطلقتَ على نَفسكَ ذَاكَ القَانون الذي امتطيته:

اليوم سَوفَ أَكونَ أَنَا..!

اصَفرت شَفتاهُ من كُنتَ تَدعوهُ أبي ، إنَكَ جَريء إلى مَا فَوقَ المعَقول ، إنَ المَعقول هُنَا يَدعوكَ للتَروي و التَمهُل لا مَكَانَ لهُ سوى أَن تَحمى قَلبكَ من أن تَكذب ، و الكَذبُ ليسَ فقط حرام ، بل لم يَأَت على رأس العَائلة رَجُل كَذب أو أُنثى وَقعت في زَلة لسان ، لأنَ اللسَان هُنَا مَسحُوب منهُ كُل مَا هُوَ سَيء ، فهَل أَنتَ ذاكَ الفتى السَيئ.. !

ـ لمَاذا هَربتَ من المَدرسة.. !

سُؤالٌ بعدهُ جَوابٌ قَاتل ، مَاذا سَوفَ تَقول لهُ في وسَط دَوامة التَساؤلات الشَرسة و الاستفهامَات السَوداء ! ، هَل ستَقولُ لهُ بأنَكَ أَنتَ لص لتـخرُج من سُؤال و تَقعَ في مُصيبة.. !

أيةُ مُصيبة هَذه التي وَقعتَ بهَا.. !

حَرامي !؟

سُمعة جَيدة في ظَنكَ !؟..

آه من ظَنكَ و سُمعتكَ و هُروبكَ و صدقكَ.. !

المُصيبة بأنَ قَلبَ أَباكَ اليَوم أَضحى آلة حياكَة و مَطحنة تَذرفُ و تَهرفُ و تَعرفُ و لا تَعرفُ ، هَل تعَلم بأنَ عَملية الشَبكية التي ستُركَبُ لقَلب أَبيكَ أَوشَكت على الاقتراب.. !

ـ في الحَقيقة يا أَبي..

كانَ أَبوكَ مُستَعداً لمَعركَة المَوت و الحَياة ، و كنتَ مُستَعداً لكُل مَا هُو حَقيقي ، لكُل مَا هُوَ فيه صدق ، ممن تَخشَى يا تُرى: !

ـ نعم بُني أُريد الحَقيقة.. !!

كَانَ وَجهُ أَبيكَ قد تغَير إلى الصُفرة ، فلم يشهد مثل هَذه الوَقاحة والاعتراف بالذَنَب ، إنهُ يواجهُ فَلذة كَبده ، يُواجهُ النطفة التي انحدرت من ظَهره و استَقرت في صَلب أُنثى سَتوكن ضَحية حَقيقتكَ:

ـ لقد سَرقتُ أَصَابع الطبشور من خَزانة المُعلمة و هَربتُ بهَا..

كَانت فرائصُ أَباكَ تَرتجفُ من الفَرحة التي وَدعَ بهَا أُختُكَ يَومَ أَمس ، كَانت فَرحة عَارمة حَيثُ عَمت البهَجة في كُل منَافذ الحَي ، لطَالمَا كَانَ يحمَلُكَم على كَتفَيه ، و هَا هُوَ اليَوم يَحملُ حَقائبَ سَفَركُم حَيثُ مُستقبلُكم ، فهَل سَيحملُ بكَ إلى الشُرطَة أَو إلى مُوَاجهة المَدرسة لُتحطم أَصَابع يَدَيكَ و قَدَميكَ ، لم يَصل الحَال كَي تُرفعَ أَمَام عُيون الطلبة و تَأكُل من مُوَجّهة المَدرسة أَربعون عَصَى تُعطى لمن عَصَى..

أَيعُقل أَن تَسرق.. !

لو اكتَفيت بالهُروب لكَانت المُصيبة هَباءً منَثوراً ، و لكَن أَن تسرق فَهذه جَريمة رُبمَا تُعَاقَبُ عَليهَا دَهراً ، هُوَ لم يَفهم بأنَكَ لم تَسرق بنكاً و لا مَتجراً و لا ذَهَباً ، هُوَ لم يَعي بعَد بأنَ الذَهب في عَينَيكَ قُمَامة الدُنَيا و أَيضاً الآخرة ، إنَ الآخرة في عَينَيكَ عبارة عن طَريق مُعبد أَسود لم تَطأهُ قدم بَشَر ، تَراهُ تَحتَ مُحَار عُيونكَ يَسبحُ و يهيجُ و يتَلوى..

تُمسكُ بَأصابعك اللوح الأزرق لتَرسُمَ به حُلمكَ فَحَقيقة البَشَر و ما يَعيشُونهَا من جَمَالية لم تَقتنع بهَا ، فَتُريد أَن تَبني لكَ بيتاً على زَفت الطُرقات..

هُنَا سَمَاء، وهُنَا فضَاء، وهُنَا شَمس، وهُنَا جبال، وهُنَا أَنت، وكَثير مَا كُنتَ تَتَسَاءل ! ، وهُم يا تُرى أَينَ هُم !؟

إنهُم حَولكَ يُريدُونَ أَن تَكونَ كمَا يُريدونَ و إرادَتكَ في مُخَيلتهم عبارة عن خَيال قَذر ، إنهُ أَمَامَكَ الآن يُقَاضيكَ على سَرقتكَ ، يَبدو مَجلس القَضَاء بينَ حَاجبيه و لم يتفوه بكَلمة ، مشَغولٌ بَصدمته و بسُمعة العَائلة ، لَيسَ مَشَغولاً بكَ، إنَكَ الآن أَخو الدكتورة..

الدكتورة التي لم تُصبح دكتورة بَعد و لكن شَغَلهم الاسم، سَمعتَ يومَ أمس من أُمكَ و هي تَقول للجَارة سَوفَ يَكون أولادي كُلهُم

أَطباء ، فَلقد قَررت مَصيركَ، وكَم كُنتَ تَطلبُ حُلمكَ الصَغير من أَبيكَ الذي لم يُلق لكَ بَالاً لأنهُ يَرى حُلمكَ مُجرد خَيال.. !!

و أَما حُلمَ غَيركَ هُوَ الحَقيقة الدَاكنة التي لا تُضَاهيهَا حَقَيقة، كَانَ يَقولُ لكَ:

ـ دَبر حَالك .. لُقمة الخُبز أهم عندنا من حُلمكَ .. !!

حُلمُكَ يا فَتَى يُوزنُ بميزان الجَيب لا بكَفة الغَيب!!

فَلسَفة لن تَفهم مَاهيتهَا إلا إذا كُنتَ على كَفة أرض مُغتصبة بيد سَاكنيهَا ، هَل أَنتَ من سَاكنيها.. !

لا يُهم ، المُهم لمَاذَا هَربتَ من المَدرسة ؟

ـ لَقد سَرقتُ أَصَابع الطبشور من خَزانة المُعلمة ، و لم يرني أَحد و هَربتُ كي لا تَبحث المُعَلمة في حَقائبنَا و تَجد تلكَ الأصَابع في حَقيبتي..

لقد قَررت أَن لا تَكذب ، و لكن بينَ الصدق و الشَجَاعة تَختبأُ الوَقاحة و عدم مُدَاراة المُستَمع لكَي يَقعَ في دَوامتكَ التي أَدخلتهُ بهَا و لم تُخرجهُ منهَا..

هَل أنتَ وَقح فعلاً يا بُني.. !!

ـ مَاذَا تَقول ! ، لَقد سَرقت و هَربت و الآن تَعترفُ أَمَامي بمَا فعَلت.. !

كَانَ والدكُ يَبتلعُ رَيقهُ الذي تَحطبَ بسَبب الخَبر ، كُنتَ أَنت أَمَامَ ظَل المشهَد تَحكَ رَأسكَ كَي تَنَال من جُرأتكَ التي تَتعرفُ عَليهَا عن قُرب ، تُقول في قَرار قَلبكَ و مَاذا سَيحدث الآن يَا تُرى!!

هَل سَيضربني ! ، و لَيفعل ، هَل سَيطرُدني ، فهَذا أَفضَل ، فهوَ الذي لم يَضرب و لم يَطرد يَوماً ، و لكنكَ صَدَمتهُ بتعبه و جُهدَه الذي كَانَ يتَنقلُ بينَ المتاجر ورُؤوس القَوم و يَتفاخَرُ بينهم قَائلاً:

أَولادي يعرفونَ الصَحيح من الخَطَأ و الحَلال من الحَرام..
لقد عَرفتَ كَيفَ تُنَكسُ كَلمتهُ بشَطبة رَأَي منكَ ، لم تُنكس و حَسَب بل رفعتَ قَلبهُ عَالياً حَيثُ المَدى كُنتَ أنتَ المَدى و هُوَ الصَدَى و المشهدُ أَمَامكَ يتَهَاوى و يتَهاذى على كَتف الصَدمة..
إنهُ يستَنشقُ بصُعوبة ، تَراهُ أمَامكَ كَي يُعلمكَ التَاريخ كَيفَ سَتُحيطُ بحُلم هُوَ لَيسَ لكَ ، كان و لا زَال هَذا الَرجل عُكَازكَ حينما حَرقتهُ بفعلتكَ التي فَعَلت ، فَأنتَ لَيسَ في دَولة عَربية كَي تَكونَ مَسؤولاً عن نَفسكَ ، أَنتَ هُوَ حَيثُ مَصنع تَركيب و تَجميع هَذا المكَان المنُخفض عن مستوى العلم و العَقل..
لمَاذا أَنت وَاقفٌ أَمَامهُ تُشاهدُه كَيفَ يسعُل ، اركُض بكُل قوَاكَ ، اضَرب ظَهرهُ و اجلب لهُ كَأسَاً من المَاء ، هَون عَليه بكَلمة وَاحدة فقط:
ـ بابا ، مَا بكَ ! ، هَل حَدثَ لكَ مَكروه لا سَمَح الله.. !!
لكَنَ المَوقف كَان سياج يَحميكُم من الوَحوش الضَارية ، و انهَار في لحظَة غَصَة ، إنهُ يَقع جَنباً و عَلى ظَهره و يَرتطم جَبينهُ أرضاً ، كُنتَ أنتَ الوَحيد في تلكَ الغُرفة التي تُحاسَبُ بهَا ، و كَانَ اللهُ ثَالثَكُمَا يَسمعُ و يَرى و يُدونُ آخر كَلمة و آخر سُؤال سَأَلكَ إياهُ:
ـ لمَا هَربتَ من المَدرسة!!

يا الله ، آخر ما بَاحَ به أَبوك ، لم تَقتنع بَأَن المَوتَ يطرقُ بَابكُم يُريدُ أَباكَ ، يسحبُ أَنفاسهُ من غَصَة قَلبه و يُرديه أَرضاً مُضَمَخاً بالأَسئلة ، ينتَظرُ منكَ جَواباً يشفيه!

بينَ هَذه اللحظة و يوَم أمس كَبين الأَرض و السمَاء ، هُناكَ بَرزخٌ لا تَعرفُ مَداهُ ، فَرحة و وَجع في فترة زَمَنية مُباغتة، كَأنمَا هُناكَ رَجُلٌ عَشقهُ كَأسَ النبيذ ، منعهُ الطَبيب عن تجرع النَبيذ، جَاءَ يوَم فرح لأَحد أَبنَائه شَربَ النَبيذ نَخباً لهَذه الفَرحة و سَقط أَرضاً مغَشياً عَليه قد تَغشَاهُ المَوتُ يَهمسُ في أُذنَيه:

و لكَنكم لا تَحبونَ النَاصحين!!

مُتعبة تَنهيدة العتَاب بعدَ الغياب، لأَنَ في عتابهَا غياب آخر، تَركُضُ بَكُل جَوَارحكَ تَهزُ أَباكَ تُريد أَن تُخرجهُ من غَرقه الذي رَاحَ فيهَا ضَحية بَسبب فعلتكَ التي فَعَلت:

ـ بابا ، بابا ، أَرجوك تَكلم..

صَمتَ الصَمتُ عن الصَمت في لَحَظة ضَجَيج للنَفس ، كُنتَ أَنتَ و النَفس و الكَون في مَحَل خَبر كَانَ ، كَان من الأَخبار و أَخواتهَا ما يَسُد رَمقَ هَذا الجَعَير الصَادَرُ من فُوَهَات قَلبكَ، سُؤلٌ لا زَلتَ تَحتفظُ به إلى هَذا الوَجع من الانفصَام، وجَوابهُ لا زَلتَ تنَتظرهُ:

ـ أَنتَ مَاذا فعلت يا تُرى !؟..

لم تَفعل شَيء أَبداً كَانت هُنَاك مَزحه مع المَوت و كَانَ ضَحيتهُا وَالدَكَ ، و أَنتَ يتَقاطَرُ منكَ الخَوف تَخشَى أن تَرفعَ خَطَأكَ مَرة أُخرى كَي لا يَسمعُكَ من في البيت ، تُخبأ مَا كان يَدور بينَكَ و بينهُ ، و لكن تَسمعُ أُمَكَ صَوتَكَ و أَنتَ تُنَادَي:

بابا .. بابا.. !

يُفتح الباب، مُدَاهَمة قَادمة من المَطبخ وبَيدهَا مَعَلقة الطَهي، وقد ارتَدت لباس المَطبخ، مَسكينة تلكَ القَافية التي تَسيرُ حَافية في المَطبخ ، مَشغولة ببطنَكم و أَنتُم مَشغولينَ بهَدَمها و سَحب رَحيق دَمَهَا، و لَو شَققتُم عن شَراييِنهَا لوَجدُتم بأنهَا مُكتوبٌ:

هَذه الدمَاءَ لكُم..

لا مَكَانَ للحُب هُنَا يا سَيدة الأَواني التي تَغلي على نَار اللهفة سوى العَويل ، هَيا اصرخي بأَعلى وَجعك و أنزعي تلكَ الابتسَامة المُنمقة التي وَضَعتها يَومَ وَدعت ابنتك يَومَ أَمس ، هَيا حَلقي بالصُراخ عَالياً لم أَسمعَك بَعد:

ـ مَاذا به أَباكَ يا هَيثم !؟

هَيثم كَانَ مَشغول بينَ الصدَق و الجُرأة و الوَقاحَة ، كَانَ و لم يَكُن و يا لَيتَ الأَمَاكن كُلهَا نَاقَصَة كَذاكَ الفَعَل النَاقَص ، فمن يَسُد هَذا النَقص الأَن.. !

أَنتَ مَثلاً !؟

الآن لَيسَ وَقتَ الحَسَابات الفَلكية التي تَجري بكَ نَحوَ الشَوارع المُرهقة كَي تَرسُمَ بهَا شَبحاً ، كَي يَمرَ أَحد المَارة لَيقولَ لكَ:

وَااو حُلو كثير .. برافو..

انَكسَر ذَاكَ الأصبع حينمَا شَددت عَليه كَي تُلون به مَقاماً سَمَائياً ، تَعلمتَ الدَرس أَن تُحَافَظ على الأَصابع كمَا تُحَافظ على سرية السَرقة و سَلب الأصابع تلوى الأَصَابع من خزَانَة المُعلمة ، كَسرت أُمَكَ سَلسَلة أفكَاركَ في لَحَظة صَمت عارمة:

ـ بُسَرعة نَادي لعَمَكَ حَمزة..

كُنتَ تَرتَجفَ خَوفاً من هَذا المَشهد ، كَانت أَصَابعُكَ تَتَكسَرُ وتَنَحدرُ وتَنَهَارُ كَأنَ هُنَاكَ زلزَال وَحدث، أُمَكَ اللبوة غَاضبة الآن ، أَسدَهَا يَموتُ أَمَامهَا وُ تُريدُ النَجدة:

ـ مَاذَا دَهَاكَ ، هَيا بسُرعة.. !!

صَوتُهَا كَأنهُ مَزَمار زَوبعة ، أُذُنَاكَ مُسدود بهمَا الدَهشَة ، لُعَابُكَ يزَحفُ من شَفتَيكَ ، و بينَ السُكون و الانهيار يَخلدُ الصَمتُ في مَحَراب الصَمَت:

ـ حَالاً..

تَجري و لَيتكَ كُنتَ تَدري ، اجري يا حَبيبي ، تَتَعثَر بكُل مَا تَراهُ و تَخشَى رُؤياهُ ، تَتَخثَرُ الدمَاءَ في عُروقكَ وَجَلاً ، و تَنزفُ قَدمكَ من جُرح قَديم .. إنَكَ لستَ قَديماً.. !!

إنَكَ لستَ قدَيماً كَلا..

إنَكَ هَذا أنتَ هُوَ الذي اتَخذت عَهداً على نَفسكَ كَي تَكونَ صَريحَاً مع ذَاتكَ ، و لكنَكَ لم تَبلُغ الحُلم بعد أو بَلغَتَ كُلَ شَيء فَي لَحَظة تَخطيكَ على قَانون الصَمت ، إنَكَ هُوَ ذَاكَ الذي يَجري كَي يُنقذَ أَباهُ..

أَبوكَ مُتَشَردقٌ بَينَ الحَياة والمَوت، كمَاشَات تَتَمسَكُ به على الأرض وكَمَاشَات تَسحَبهُ إلى سَمَاء، إنهَا كَمَاشَات غَير مَرئية، تَحتاجُ لرؤيا أَكثرُ كَثباً كَي تَسحب تلكَ الشَهقة العَالقة في صَدركَ..

اجري حَيثُ الأَمَان ، و لكنَ القدر يَعدكَ بأنَكَ لن تَشعُر بالأمَان بعدَ اليوم ، إنكَ نُسخة عن القدَر ، لأَنَك تُريد أنَ تَكونَ أنتَ و لا أَحد سواكَ.. !!

سواي ؟..

نَعم سواكَ .. في قَانون بني البَشَر أنَانية ، و في قَانون الحُرية حُرية ، و في عَقلكَ انعتاق عن كُل مَا هُوَ مُعيقٌ لقَلبكَ ، تُريد أَن تَكونَ أَنتَ و ليسَ هُم ، إذاً عَليكَ أَن تُجَازفَ بهم وَاحد تلوى الآخر..

جَاركُ السَيد جَان ، رَسام مُحترف جَداً ، لم تَبلغ صَفهُ كَي تَتَلقى عنهُ علم الألوان ، تُريد أَن تَسرق ريشتهُ و تَرسُم بهَا خَيالكَ ، و

لكنَ خَيالكُ الآن يَذهب و يؤوب حَيثُ الهَاوية ، و الهَاوية مُؤصدة بالرَحيل ، و الرحيل اختارَ أَباكَ ، و السَببُ أَنتَ يا فَتَى:

ـ عمي حَمزة.. !!

تَلهثُ و تَشهقُ و تَسحَبُ الرُعبَ أو لعَلَ الرُعبَ يسحَبُكَ حَيثُ المَد ، و لكَنكَ مُعلق حيثُ حَلقة الجَزر ، تَحَاول أن تَتَكلم ، يحاول أن يَفهم مَا بكَ ، تَحَاول الكَلمَات أَن تَخرجُ ، و لكَن الهَواء ينكمشُ في فُوهة حُنَجرتكَ:

ـ مَا بكَ بُنَي.. !!

أنت أَكبرُ من تَحَررك من الكَذب و دُخولكَ في عَالم الصدق، وأَنتَ لا زلتَ تَسيرُ حَيثُ الصدق لا تَنسى أن تَرتطمَ نَوماً في سُباتكَ ، تَباً لي و لسباتَي:

ـ أبي..

عَمكَ الذي كَانَ يَأَكُل من كَتف وَالدكَ حينما أورثهُ جدكَ يُتماً يُقطعُ الأحشَاء و يُمَزقُ الأَفئدة ، لعَلَ القدَرَ يُعيدُ الكَرة مَرةً أُخرى ، إنهَا نَهفة الفَقد و مَزحة القدَر ، تَتَساءل هَل القَدَرُ يمزحَ.. ! بالضَبط كما كُنتَ تَمزحُ مع نَفسكَ و تُريد أَن تَترُكَ سياسَةَ الكَلمَات و تَلجأ إلى الصدق ، لَيسَ كُلَ الصدق فَضيلة ، فَهناكَ من مُوَاجهة الصدق مَا تَكونُ رذيلة ، أو تَجعل الولدان شَيباً:

ـ أبي لقد أُغمي عَليه و وَقع عندما كَان يُحَدثني في غُرفة المعيشة

كَانَ الدَورُ الآن لعَمكَ ، تَركَكَ حَيثُ الكَلمَات ، اجلس على أَريكَة المَاضي و احتسي فُنجَانَ قَهوتكَ ، و أمسك كتَابكَ بشمَالكَ و قَلبه حتى تَصل إلى مُنعطَف الحَديث ، لن يُغني حَديثَ الرجَال عن رَجلُ البُطولة بعد أَن رَحل..

تُلملمُ شتَاتَ قَلبكَ..

و تَجري حَيثُ تَركتَ ضَحيتكَ..

مُلقاة على عَبثية الحَياة و المَوتُ تُقاضيكَ..

مَأسورة تلكَ النَفسُ دَاخلَ قفَص الصدري تُنَاظرُكَ..

تَدقُ أَبوابَ دَهشتكَ تُريدُ أن تَرتَوي قَبل أن تَرحل ، إنهَا أَحشَاء الصدَر تتعارك خَلفَ الكَواليس ، أَشياء لا تَراهَا أبداً تُدعى بذبحة صَدرية تَتَسلل إلى شَرايين القَلب ، تَقتَحمُ النَبضَ لتقتلهُ ، يَقتلُكَ الظلُ الذي اختفى..

إنهُ الجَسد الذي كُنتَ تَقولُ لهُ:

بابا..

هَا هُوَ يُلملمُ أحلى أَنفاسهُ بينَ كَفَي عَمكَ الذي قتَلهُ الرُعب، عَمكَ الذي لم يخَشى الرُعبَ يَوماً وإنمَا كَانَ ولا زَال يَخشَى الدَين الذي في عُنقه، كَيفَ سَيردُ جَميل أباكَ الذي رَباهُ ورَباكَ.. !!

مُعادلة قَوية جداً..

مُعادَلة جَائرة في نَظَر المَدين و المَديون لهُ الله..

تَباً للدَين و مَا يَنتَابهُ من جُنون ، المُصيبة لَيس في الدَين و لا في الدَائن بَل المُصيبة في مَا بعدَ سَدَاد الدَين ، سَتعلم وَقتهَا أَنكَ لا زَلتَ مَديون عندَ ذَاكَ الرَجُل حَتى لو سَددتهُ كَافة دَينهُ..

الدَينُ هنُا يَختلف..

دَينُ الآباء لا يُسد حَتى لو أشعلتَ لهَم الأَرض رضَى وذَهباً، دَين الأَخ إن أخذَ مَكَانَ الأب فَدَينهُ مُؤلم حَدَ المَوت، هَا هُوَ المَوت أَتى من غَير أَن يُعلمنَا بقدومه ، هَا نَحنُ هُنَا مَكتوفينَ الأيدي ، هَا هي سَيارة الإسَعاف تَقفُ أمَامَ المنزَل ، هَا هُوَ المنَزل قُلبَ رأس على عَقب..

أَجلسُ بجَانب عَمي في سَيارة الموت ، أُمي بجَانبي قد عقدت أيشَاربهَا على رَأسهَا مَخَافة أن يَرى شَعرهَا الرجَال ، لا غُرباء هُنَا سوى الموت ، مُعَادَلة الخَوف من الله أم من العَادَات أم من التَقاليد هُنَا تُسَاوي كُل دَرجَات الإيمَان..

إيمَاني يُراقبُ شَهيق وَالدي الذي يَكَادُ يتَقطع شَيئاً فَشَيئاً ، الدكتورة التي ذَهبت لتَدرُسَ الطَب خَارجَ البَلاد مَسَرورة بَباريس ، و الموتُ مَسرور بَأبي:

- بابا..

لنَ تَنَفع الكَلمَات المُنَمقَة و العَقلُ في مَحل الرُفوفُ العَلوية للغَياب ، نَحنُ و الغَياب و أبي نَتوجهُ بأقصَى سُرعة حَيثُ المُستَشفى ، و وصَلت السَيارة في تَمَام خُروجي من المَدرسة في السَاعة الوَاحدة ظُهراً..

كُنتُ أقولُ في قَرار نَفسي لو أنَني لم أَهرب من المَدرسة هَل سَيكونُ المشهد كَالذي أراهُ الآن ، إنَ أربابَ القَضَاء و القدَر لهُم فَتوى أنَ هُنَاكَ أسباب للموت لَعلهُ أتى المَوت و أَنتَ سَبباً و مُسَبباً لهُ..

ومن هُوَ !؟

إنهُ وَالدكَ.. !

عَفواً نَسيت ، إنَنَا مَشَغولينَ بصحة الوَالد ، و الوَالد لم يُجَيب إلى صَوتنا ، أو لعَل صَوتَ عَمي مُنخفض ، أَو صَوتَ أُمي مُزعج و مَصحوب بالضَجيج ، سَأُجرب أَنا:

ـ أَبي أَرجوك هَل تَسمعني.. !

كَانت عَيناهُ شَاخصَتان نَحوَ عَينَاي ، تُريدَان شَيئاً ، أُريدُ أن أعرفَ مَا هُوَ هَذا الشَيء ، عَينَان كَأنهُمَا جَمر و نَار الله المُوَقدة، كُنتُ أَنا و العَيون و من في السَيارة نَار مُوقدة..

وَصَلت السَيارة إلى بَوابة الطَوارئ..

أُخرجَ السَرير الحَديدي الأبيض من المكَان الذي أُدخل فيه ، جَميع المَمَرات و المُمَرضَات و الأطباء يَرتَدونَ اللون الأبيض ، كَأنَ هَذا اللون الضَعيف كَمَا كنتُ أُلقبهُ بالذَات أَخشَاهُ لأَنهُ في الحَقيقة يُشبهَني..

أنَا جُزء منهُ ، اتَخذتُ الصدقَ نَصَاعاً كَي أعودَ إلى كَينونتي و مَحبتي للحَياة ، هَا هَي الحَياة و البيَاض يتَقابلان على طَاولة البَلاء..

ليسَ كُل مَا يُفتح هُوَ بابٌ للنَجَاة..

هُنَاكَ أَبواب تُرابية فُتحتَ لتَضمُ أَحَبَ النَاس إلينَا ، و هُنَاكَ أَبواب جَليدية فُتَحت لكي تُخَرج أَقرب النَاس إلى قُلوبنَا ، و هُنَاكَ أَبواب للشَر و أَبواب للخَير ، و هُنَاكَ ما لا عَينٌ رَأت و لا أُذنٌ سَمعت و لا خَطَرَ عَلى قَلب بَشَر.

هَا هي بوَابة السَيارة تُفتح ، هَا هُوَ ذَاكَ القَريب البَعيد يُخَرج من قَافَية الكَلمَات ، إنهُ ميزانٌ للكَلمَات كَمَا هُوَ لونٌ لا يُستَخدم إلا لمَحو الخط المَائل ، هَل كُنتُ مَائلاً و أَتى كَي يَمحو الفَرحَ من وُجه أُمي.. !!

يُنَزلُ من بوَابة و يُخدلُ في بَوَابة أكبر منَهَا ، بوَابة نُمنعُ من دُخولهَا ، لأنَ الَقافَية هُنَا بَرعَاية الأجَهزة الطَبية ، و نَحنُ بَرعَاية الرُعب الذي تَسللَ إلى مخيخ مَفاصلنَا..

هَذا ليسَ أنَا !! .. بالفعل..

إنهُ هُوَ ذَاكَ الذي يُريدُ يتَمَرد على قَانون من لا قَانونَ لهُ ، القَانونُ هنُا بيد الله ، و نَحنُ في قَبضته نَموتُ و نَحيا بإذنه ، وكُلنَا في فَلك المَلكوت نسبحُ و يُسَرحُ بنَا..

السَاعة تُشيرُ إلى أنَ الوَقت الآن بحَاجة إلى الجُلوس على المَائدة ، كُنتُ أَسمعها يَومَ أَمس بأنهَا تُريد أَن تَصنع لهُ الكُبة باللبن ، إنهُ يُحبهَا ، هل غَيرت رَأيهَا يا تُرى.. !!

خَرجت أُمي عن صَمتهَا:

ـ يا حَرام ، كُنتُ أُعدُ لهُ الكُبة باللبن.. !!

وَقفَ شَعرُ رَأسي عندما سَمعتُهَا تَستحضرُ تلكَ الكَلمات، هَل سَينجو و يَخرجُ معنا كَي نَأكُلَ معهُ الطعَام الذي يَشتهيه!

هَل أنا الآن مُذنب.. !

التَفتَ إلي عمَي:

ـ بنُي مَا الذي جَرى لهُ! ، هَل كَان منزعج من شَيء مَا.. !

ابتلعتُ رَيقي ، تَصببَ العَرقُ من جَبيني ، هَل آخُذُ دَورَ الذي لا يَعرفُ شَيء و هُوَ في الحَقيقة سَببُ كُل شَيء ، أم ينَطقُ بالصَدق كَي تَقع أُمي مُرتَطَمة على شَفير دَهشتهَا ، و إن أصَابَ أبي شَيئاً فعَلياً فَلنَ أَنجوا من ألسنتهم ما دُمتُ على هَذه الأرض حَياً:

ـ كَلا ، لقد قَال لَي نَاولني المَاء..

دَخلَ الظَنُ في قَلب أُمي ، تَغيرت مَلامحهَا ، أنا أَعرفُ تَلكَ اللبوة عندما يتسَربُ الشَكُ إلى قلبهَا ، كَيفَ تَرمشُ بعين وَاحدة ، جَفنُهَا لا يَكادُ يتَوقف عن التَصفيق ، تَفتَحُ فَاهَا للهَواء الطَلق ، كَأنهَا هَي و الهَواء عَبارة عَن مَحلول وَاحد:

ـ و لكَن أبَاك كان أمامهُ إبريق من المَاء..

تَلعثَم الريقُ في فَمي ، شَعَرتُ بأنهُ قد تَلبدَ ، و حَلقي قد تصَحر ، لا أعرفُ كَيفَ سَأوقفُ شَلال الأسئلة هَذا ، و لكن سَمعتُ جَدَتي تَقول بإنَ حَبلَ الكَذب قَصير:

ـ في الحَقيقة يا أُمي ، نَعم لقد كَان أمامهُ المَاء ، و لكن كَان يُريدُ مَاءً بارداً..

لم يَدخُل في عقل أُمي هَذا الاعتراف الغَير مَنطقي ، كَأنني أرى رَفت جَفنهَا تَقول لي:

ـ حَسابك بَعدين.. !!

يا إلهي وَقعَ قَلبي ، كَيفَ سَأنجو من تلكَ الأَسَئلة و الهُجوم الغَير مَنَطقي ، بل إنهُ منَطقي و لكن أَنا لا أَعرفُ كَيفَ أَكذب لَأنَ هَذا الشَخص ليسَ أنَا..

إنهُ هُم ، هُم يُريدُونني هَكذا ، يَكذبونَ مليون كَذبة في اليَوم و السَاعة و بعد ذَلكَ يَقولونَ لَنَا بأنَ حَبل الكَذب قَصير و إن حَدثت مُصيبة بعَدَ تلكَ الفَاجعة سَوفَ يَقولونَ لنَا قَضَاءَ الله و قدَره وهُم من كَانوا سَبباً في هَذا القَضَاء، يا رَباه هَل سَأقضي على وَالدي..!

خَرجَ الطَبيب و قد أوقعَ رَأسهُ أَرضاً ، جَثَمَ العَمُ أَمامهُ كَأنمَا الحَياة و المَوت بيد ذَاكَ الرَجُل الذي تَمرغَ بالبَياض:

ـ طَمن يا دُكتور هَل أَخي بخَير..

رَنَ هَاتفَ أُمي المَحمول ، أَغلقت في وَجهه كَي تَعرف ما هي أخبار أبي:

ـ اطمأنوا إنهُ خَرج من هَذه الأزمة و لكَن لا زَال تَحت العنَاية المُركَزة ، هُوَ الآن تَحتَ المُراقبة و بَحَاجة إلى أربعة و عشرينَ سَاعة كَي يَصحوا إنهُ في سُبات..

شَهقت أُمي و أصبَحت تَندُبُ حَظهَا و الوَيل الذي حَلَ بهَا:

ـ يا وَيلي عَليك يا زَوجي..

احمرَ وَجهُ عَمي غَضَباً كَأنهُ سمعَ شَيئاً يُغضبُ الله ، فنَحنُ في مُجتمع لا يَعرفُ فطَرتهُ إلا إذا حَلت به المُصَيبة ، و لو رَأيتهم كَيفَ يطوفونَ بالقُبور و يتَبركَونَ بهَا و يُمَجدونَ أَولياءَ الله الصَالحين ، و لو رَأيتهم وقت المَصائب كَيفَ يَتضَرعونَ إلى الوَاحد الأحد لتَفلتَ عَليهم:

ـ طَولي بالكَ يا مَرة.. !!

بدَأت أُمي تَلطُم بَصمت ، كَفُهَا يَهوي نَحو خَدهَا بكُل هُدوء ، أَرادَ عَمي أَن يَفهم ما الذي جَرى لهُ:

ـ و مَا هي حَالتهُ و مَا الذي جَرى مَعهُ حتى وَقع هَكذا.. !!

عادَ هَاتف أُمي يَرن ، من المُضحك أن تَسمعَ النَغمة الطَربية لأُم كَلثُوم أَنسَاك دَه كَلام ! ، دَه مُستَحيل قلبي يَميل ، كُنتُ أُراقبُ وَجهَ الطَبيب كَيفَ سَوفَ ينَفجرُ ضَحكاً:

ـ في الحَقيقة أُصيب باحتشَاء في القلب ، هَذه المَرة نَجى من المَوت بأعجوبة ، و لكن عندما يَصحو سَوفَ نُجهز غُرفة العَمليات لأَنهُ بحَاجة إلى شَبكة في القلب كَي تَحميه من الانتكَاسَات المُستقبلة..

دُهشَ الجَميع بهذا الخَبر ، و لكنهم حَمدوا الله على أنَ حَالتهُ عدت مَرحلة الخَطر ، و لكن هُنَاكَ مَرحلة أُخرى تُدعى العمَليات و الشَبكَات و مَا شَابه ، أُمي كَانت مُتعطشَة لُرؤياهُ ، تُحبهُ يا عَزَيزَي:

ـ هَل لي أَن أَراهُ دُكتور.. !!

ـ كَلا ، يَجب أن تَرحلوا و غداً تَعودوا ، لن تَستفيدوا من وُقوفكُم هُنَا ، فَهو بحَاجة إلى الرَاحَة و وُقوفكم من غَير فائدة لأَن الدُخول إليه ممنوع..

أَصرت أُمي على رُؤيته:

ـ أَرجوك، رَبي يخَليك أولادَك، رَبي يَرفع من مَقامك، رَبي يُعلي من شَأنكَ، لو لحَظة وَاحدة دَعني أَراه.. !!

كَان رَأس الطَبيب أقسى من صُخور جَبل أُحد:

ـ إنَ صحتهُ تَستلزم أَن لا يَدخُل إليه أَحد ، فَأتمنى أن تَتَفهمي الأَمر ، إن كَانَت تُهمك صحتهُ فَأرجوا أَن لا تَدخُلي..

فَهمت أُمي الأَمر ، هَزَ عَمي رَأسهُ مُوافقاً لكَلام الطَبيب ، كَانَ الحُزنُ يأَكُل وَجهَ أُمي كَالنار في الهَشيم:

ـ أنتَ حَسابك بَعدين..

تَلعثمت مُخاطه كَانت عَالقة في سَقف حَلقي ، لا تَعلم هَل تَنحدرُ إلى البُلعوم أَم تَبقى مَاكثة حَتى تَصفوا الأَرواح من حَركة الطَوارئ:

ـ أنَا ما دَخلني!!

في المحن يَجب أَن يَكونَ خَلفَ كُل ضَحية جَاني، على مَا يَبدو بأنَ الكَمين وَقع على عَاتقي ..

أنَا الآنَ ليسَ أنَا..!!

مُجرد من كُل مَا أُريد ، أَقفُ خَلفَ مَوارب الظل و تُهمتي القَتل العَمد ، هُم يُريدُونني كَما يُريدُونَ ، لم يَستَمع أَحد إلى ذَاكَ الصَخَب الذي يدوي في قَعر صَدري..

تَفتَرشُ أُمي غُرفة الانتظار ، و أَجلسُ خَلفهَا مُباشَرة ، و عَمي تَمسحُ قَدَمَاهُ مَمَرَ المَشَفى ذَهَاباً و إياباً ، تُطلُ الحُلوة كُل سَاعة من الباب ، تَخترقُ صَفو التَوتر الذي جَز نَحري بلا سَبب ، تَبتَسمُ للعم و لأُمي:

ـ لن تَستَفيدوا شَيئاً إن بَقيتُم هنُا ، من الأَفضَل مُغَادَرة المَكَان و أَن تَأتوا غَداً..

يَتَصببُ من جَبين أُمي العَرق ، لا تُريد المُغادرة ، لا أَعلم ممن تَخشَى ، هَل تَخشى من عَمي أَم عَمي يخَشى منهَا ، أَظُن بأنَهَا تَقول في قَرار صدَرهَا إن رَحَلت و تَركَت أبي فَستَكونَ حَديث عمي بينَ نسَاء العَائلة ، و سَوف يَقول:

تَركَت زَوجها في أَحلك المَراحل التي مَرَ بهَا في حَياته.

و أَيضاً هُوَ يَقول في قَعر قَلبه ، إن تَركَ المَشفى و ذَهب إلى المَنزل فسَكون حَديثَ أُمي و شُغلهَا الشَاغل ، و سَوفَ تَنقُل خَبرهُ من أُذنٌ إلى أُذن بأنهُ تَركَ أخاهُ في أصعب الظُروف و هَرب..

أنَا ضَحية ظُنُون الشَبحَين المَاكَثين أَمَامي ، أَنا أَيضاً أَفترشُ تلكَ البُقعة التي يُخَيلُ للحَياة بأنهَا تَسعى ، و لكَن إلى أَينَ تَسعى.. !!
إلى المَوت ، نَجى وَالدي من المَوت ، و لكن الظُنون لم تَنجو أيضاً و بَقيت عَلى قَيد الشَك تَذهب و تَأوب ، هُنَا و أَنا جَالس خَلفَ ظل تمساحين تَحترقُ صُدورهما قَبلَ لسَانهما أُفكرُ كَيفَ إن استيقظ أبي من سَطوة المَوت بمَاذا سَيشي لهاذين الشَبحَين..
سَوفَ تُشَبعني أُمي ضَرباً ، و عمي القَاسي العَصبي المَزَاج سَوفَ يجعلُ من جلدي طَبلاً يُطرقُ آنَاء الليل و أَطراف النهَار ، سُحَبَ أمل المُستَقل من قَلبي ، الأَمل مَفقود يا فَتَى ، عَليكَ أَن تُفتشَ عن أَمل آخر ، حَسنَاً أحملُ مَفاصلي عَلى كَتف النَوم لا أعلم أَين أُريد أن أضَعَ رَأسي ، رَأسي مُثقل بالرُعب ، إنهُ رَأس يَحلمُ بأن تَكونَ إرادتهُ من فَيض نَفسه ، و لكنَ القَرار هُنَا ليَس بيدي..
بيد من.. !
بَأَيديهم ، المُجتمع ، الدَولة ، العَائلة ، المُحيط ، و الخَليج و هُلمَ جَرا ، كَم سَببتُ تلكَ الجرأة المَجرورة التي تَقتَادُ بصَاحبهَا حَيثُ الكسر ، كَأن يُكسرُ عُنقكَ ، و تَحملَ جُثمَانكَ حَيثُ القُبور ، و تَقوم بدفن نَفسكَ خَوفاً من أَن تَأتيكَ الوُحوش و تَكون وَجبتهَا الرَئيسية..

فَأنتَ في كلا الحَالَتَين وَجبة رَئيسية..

فمنذُ أن تسقط في كَنفي هَذا الكَونُ سَهواً حتى تَرحل بشَطبة عَقيدة مَا أَو قَومية مَا فَأنتَ ضَحية ، تُسمَنُ لتُذبح على منَحر غَيركَ و دَمكَ يسيلُ في سَبيل غَيركَ ، و تَمضي الأَيام و تَكتشف بَعد جَيش من الشَيب و ضَعف النَظَر و المَفاصل بأنهُم كَذبوا عَليكَ..

عندما تكتَشف نَفسكَ في مَحَاكم العَقل بأنكَ لا زلتَ فطري الهَوى و الفكر سَوفَ تُواجه التُهم و تَتَرامى عَليكَ الرمَاح من كُل حَدب و صَوب و تَتَضمخُ بحُريتكَ طَريداً غَريباً يتَقاطرُ منكَ المَوتُ..

وأنَت فطري الفكر و المنَطق سَوفَ تَعرف في بداية الطَريق و الكَلمَات التي تُلقى على مَسَامعكَ:

مَجنون..

أَول وصَف يُطلقُ على الفكر الجَديد ، لَيسَ الفكر و حَسب بل المُفكر أَيضاً ، إنَ هَذه الصفة عَرفُتها عندما كُنتُ أَستمع إلى دَرس في السيرة النَبوية في العَاصمة دمشق ، كَان يتَحدث المُحَاضر بأنَ النبي في بدَاية دَعوته أطلقوا عَليه صفات لا يَتَحملهَا عَقل إنسَان:

مَجنون ، دَجَال ، كَاهن ، مُشَعوذ ، سَاحر..

هَل تَعرف مَا مَعنى هَذه الصفات عندما تُطلقُ على إنسَان كَانَ يُلقبهُ مُتهموه بالصَادق الأَمين ! ، طَبعاً لا تُريد أن تَعرف حَتى تَأتي بالجَديد ، و الفكر المُنير و تَعرضهُ على أكابر القَوم و يُكَذبوكَ.. !!

يا رباه ما أصعبهَا من تُهمة..

تُهمتي هُنَا أَنَني كُنتُ سَبباً في أَذية وَالدي ، و أَنا لم أَكن أَعلم بأنَ قَلبهُ ضَعيف إلى هَذه الدَرجة ، كُلَ الذي رَأيتُهم من أصدقاء والدي كَانوا يَقولونَ لي بأنَ أَباكَ شُجاع ، مَاتَ أباهُ في سن صَغير و كَانَ يدرُس و يعمل من أَجل أَن لا تَعمل وَالدتهُ في بيوت النَاس..

كَبُرَ على كَتف أَباكَ سَبعةَ يَتَامَى بَينَ أخ و أُخت ، و كُنتَ آخر من تَزوج من أَجل أَن لا تُلاحقَ بهم في الجَميعُ يَخشَاكَ لَيسَ خَوفاً بل حَياءً ، يَقولُ لَي قَلبي:

ـ أَينَ بَقيةَ إخوته و أَخواته أَي أَعمامي و عَمَاتي.. !!!

هَل هُمَ الآن في سُبات عَميق و هل عَرفوا فعلاً مَا جَرى مَع وَالدي ، و إن كَانوا عَرفوا لمَاذا لم يَأتي أَحد منهم إلى الآن ، هَل هَذا جَزاء المعروف.. !!

في الحَقيقة لا أُريد أَن أَرى مَظهر النفاق الذي أَراهُ في العَام مَرتَين ، مَرة في عيد العُبودية و مَرة في عَيد الدَم ، عَفواً مَرة

في عيد الفطر و مَرة في عيد الأَضحى ، مَضَى على عُمري كذَا عام عندما أَمَرتني أُمي أَن أَمتنع عن الطعام و الشَراب من أَجل رمَضَان..

هَززتُ برأَسي كَبقية العَبيد في هَذا الكَون:

ـ حَاضر و لكن لمَاذا نمتنع عن الطعام و الشَراب..

كَانت يَومها قد تَعكرَ صَفوها جداً لأَنَها تُعد الأَلبان و الأجبان بمُنَاسَبة قُدوم الشَهر ، رُبمَا الجُبن لم يَخرج من مَكَانه كمَا تُريد ، و لكَنني عندما تَذوقتهُ كَانَ في الحَقيقة أَلذُ من كُل مَرة ، دَائماً تُمرغهُ بالملح حتى يَكرهُ فمَي طَعمَ الجُبن ، هَذه المَرة لم يَكن به تلكَ المَادة التي تُشبهُ قُلوبَ البَشَر..

وجههُ أملح ، نكاية عن الجمَال..

قَذارة في الوَصف كَمَا إنهَا قَذارة في الطعم ، فَالمُهم عند الآباء شَمَاعَات حتى يُسكتوا أسئلة أَطفالهم:

ـ إنهُ رَمَضَان و بس.. !!

تَعجبتُ ، طرقتُ رَأسي بالجدار ، أُراقبُ أَلسنة اللهَب كَيفَ تَسري من زُجاج البَيت ، غَداً رَمضَان ، و الأَجواء مَائلة جُزئياً إلى جَهنم ، عُمري كَانَ ستة سنوات آن ذاك ، كُنتُ آكُل الأَيس كريم ، كُنتُ أُشبهُ الكَريم ، أَبي يَعود مَسَاءً من العَمل يَتشَاجرُ مع

أُمي ، أُمي تَتَشَاجرُ معنا ، و نَحنُ نتشَاجر مع أَبنَاء الحَي، وأَبنَاء الحَي في مَعركة دَائمَة بينَ كَر و فَر..

عَرفتُ بأنَ الأَرضَ كَروية يوَمها ، و بأنهَا لا تَدورُ معنا أَبداً بل تَدورُ عَلينَا ، و بأَنَ الشَمسَ عُقوبة من الله و أنهَا فَيحُ من جَهنم ، و أَن الله لم يُطلع جَهنم على أَحد بل نَقلهَا على لسَان الأَنبياء ، و أنَ الأَنبياء ألزمونَا أَن نَخشَى غضَب الله و عَقابه من أجل أن لا نَكونَ من سُكَانهَا، وعرفتُ بعَدهَا بأن: ومَا منكم إلا وَاردهَا ..

كَذبتُ على كُلي عندما سَلمتُ كلي لغيري..

تُريدني أَن أَمتنع عن الطَعام و الشَراب من غَير أن تُقنعني مَا هُوَ السَبب ، مُخَالطَة و مُخَاطَرة في العَقل البَشَري ، سَحبي إلى مَتَاهَة أن لا تَسأل.. !

أَنا أَسأل عن السَب و حَسب ، ما هي العبرة يا تُرى، جُوع وعَطش ! ، تعَال إلى وَاجهَات التلفاز قَبل رمضَان، لم يَبقى طَبيب و مُستشَار صحي وخَبير تَغذية إلا وتَباركنَا بطَلته البهية ، في المَسَاء نَحنُ تَحتَ قَبضَة الوَالد، والوَالد في قَبضَة أَلسنَة رجَال الدين و أَطباء و حُكَمَاء رَمَضان، وهُؤلاء الرجَال من مُتعلمَين و مُتَفقَهين في قَبضَة السُلطة، والسُلطة في قَبضَة المَنصب والليرة، والمنصب والليرة مَنهوبة و مسَلوب منهَا كُل مَا هو ديمُقراطي، الجَميع يدورُ حَول مَصلحته من مَال و فَرج و مَنصب ، و الشَعبُ كالغنم يَرعى مع الدواب التي تَدُبُ على الأَرض ، و الأَرض و السَمَاوات و مَن عَليهن و من فيهن في قَبضَة الله..

و اللهُ غالبٌ على أَمره..

كَذبة نَسجناهَا كَي نَسُدَ تلكَ التسَاؤلات فمواجهة العَقل على رُقعة يُحَارب العَقل فهَذا في نَظَرهم ضَربٌ من الجُنون ، فَأنتَ في

رَأيهم تُثير الفتن ، فَعَليكَ أن تَحتَرس من العُنف الذي سَوفَ يتَفجر من خَنادق العَصَب البشَري في تلكَ الرُقعة..

البَشَر هُنَا دَمويين لأبعد مَا تَتَصور ، فَعليكَ أن تَتَصور كَي يكَونَ عندكَ إثبات على هَذا الفَصيل من بني البَشَر ، و لكن هَل سَتثُبتُ هَذا الشَيء في مَحاكمهم أَم في مَحَاكم الله..

هُوَ الله الذي يُؤخرهم إلى يَوم تشخصُ به الأَبصار..

و أَنت! هَل سَتُؤخر مثلهم !؟

أَنا لا أَبحثُ عن إقبالي و إدباري من موارب الله ، لَأنني أَعتقدُ اعتقاداً جَازماً بأني آتيه يومَ القيامة فَرداً ، وَحدي مُحمل بكَثير من التسَاؤلات كَي أُجردَ عَقلي و أُمددُ تلكَ الأَسئلة أَمامَ عَظمته..

يَحكُم عَلي عَبيد الله بالكُفر أَو قلة الأَدب بالمُخَاطَبة مع الذَات الربانية ، أَحُكم أَنا على قُطَعان الخَراف التي اتَخذت من نَفسهَا حكماً تَقتلُ و تَنفي و تُثبتُ و تُقيمُ الحدود بالجُنون لأَنَ الرب إن أرادَ مُحَاكمة شَخص فلن يَردهُ أَحد..

مُجتمع مُصَاب بداء العَظَمة ، في البَيت في العمل في الدوائر الحُكومية بينَ الأَهل بينَ الغُرباء بين الأَقرباء بينَ الأَصدقاء حتى بينَكَ و بينَ نَفسكَ ، أَفكار تجبلني في وعَاء القدَر لأُخلص تلكَ التسَاؤلات من الاحتدام الذي عَكَر صَفو سُكوني..

أَنا في مَعركة معَ الذَات ، الذَات تُريد أَن أُسَلم كَافة أَسلحة العَقل للمُجتمع و قنَاعاته المُهترئة ، و أَنا أُجَازفُ و أَخسَرُ مَزيد و مَزيد من البَشَر لأَنَ أَهوائي كَما يَظنون لا تُوَافقُ مَيراثهم العَقدي الذي تَلقوه جَاهل عن جَاهَل..

أَحاولُ أَن أَغضَ الطَرف ، و لكنَ الطَرفَ يَقظ مُشَرب بالكَافيين ، أَتمنى أن يَغفو يَوماً حَتى تَعيثَ الذَات بالجَسد و العَقل و القَلب فساداً و إفساداً ، حَتى إذا استيقظتُ أنَا من سَكرتي أَرى تلكَ الكَوارث التي تَجعل من البَشَر مَجانين بَمعنى الكَلمة..

الحربُ قَائمة و أَنا مُسَلحٌ بالمنطق و العَقل ، أُخرجُ من أَحشَاء دمَاغي تلكَ الأَفكَار ، و بعض المَرات أترُكها كَي أُحَاججهَا أَمَامَ كُل إمَام كَاذب جَائر..

المَعركة لم و لن تَنتهي مَا دُمتُ أَسيرُ مع نَفسي ، و حتى لو تَخلت نَفسي عني و مَشيتُ وَحيداً فلن أستَسلم للنُصوص من غير مُحَاكمتهَا تَحتَ قُبة الفكر و المنطق ، إنهُ أول دَرس في حَياتي ذاكَ الدَرس الذي جَعلني أترنحُ في أَروقة المستشفيات خَوفاً على أَبي ، أو حَتى أَكونَ صَادقاً خوفاً على نَفسي من تَأنيب الضَمير.. أَن تَكونَ صادقاً هُنَا يَجب عَليكَ أن تَدفعَ الضَريبة..

ضَريبة الضَمير الذي لا يعرفُ سنة و لا نَوم ، أَن تَموتَ وَحيداً بأفكَاركَ و صدقكَ و بعيداً عن البَشَر هَذه هي الجَائزة العَظيمة التَي يَرفعُكَ اللهُ بهَا مقاماً عَلياً..

و لكن أن تَموتَ و في عُنقكَ دَمٌ بَسَبب أفكَاركَ الدُموية الغَير أخلاقية أو إنسَانية ، فَدَعني أنفثُ في أُذنَيكَ صدقي الذي يُسَاوي كَذبكَ على نَفسكَ و على الآخرين:

أَنتَ مُجرم بامتياز..

كَم و كَم من مُعتقدات و أفكَار خَرجت من وَحي بيوت الخَلاء إلى عَواطَف البَشَر و جَعلت النَاس تتطاحنُ و تَتقاتلُ من أجل مَاذاَ يَا عُيون أُمكَ.. !!

مَن أَجل فكرة..

كُنتُ أَتمنى أَن تُولد الفكَرة كَي تَخدُمَ البَشَرية ، هُنَا تُطبخُ الأفكار في قدَر المَصَالح الشَخصية ، كَي تَنضُج في الوَقت الذي يُريدونَ و الذي يَتمنون ، الجَميع على أُهبة الانتظار لملئ الجيوب و السَرقة و النَهب بأسمَاء عدة:

كَالدين و القومية و الوَطَنية..

وَصَلتُ إلى قنَاعة بأنَ هَذه الثَلاث أَشياء من تَحدثَ عنهَا و دَافع عن دُستَورهَا و أَسوارهَا أَرى بينَ عَينَيه كَلمَة مَحفورة:

حَرامي..

يَكَادُ المُسوقونَ للإنسَانية على دَرب من سَارَ قَبلهم من عواء الدين و القَومية و الوَطنية ، هُم أَنفُسهم يَتَبدلونَ يتَلونَون كَجلود الحَرباء في كُل مَحفل و مَنفى و مُلتَقى لهُم نَقيق و زَعيق ، لا يَتعبونَ لأَنَ مهنتهم زَودتهم ببترول التَسَلُق..

لا عَلينَا ما دَامَت عمتي الثَرثارة قد قطَعت سلسلة أَفكَاري في السَاعة العَاشرة لَيلاً ، قدُمت مع زَوجها الذي يُقابلونَ البنَاية التي نَعيشُ بهَا ، تَبكي و تَلطُم و تَندُب أَخاهَا الذي دخَل المُستَشفى مَا يُقاربُ عَشرَ سَاعات ، مَا هَذه الكَذبة يا تُرى ، هَل أَخذت دَور في أَحد مُسَلسَلات باب الحَارة يا تُرى!!

ـ أينَ أَخي ! ، ما الذي حَلَّ به ، أرجوكم فَلينطُق أحد منكُم ، هَل حَدثَ لهُ مَكروه يا تُرى.. !

نَزلت من عَين أُمي الدُموع ، أَتت أُنثى كَي تَبكي معها ، و لكن لم يكَتمل النصاب ، نَحنُ بحَاجة إلى خَمس نَسَاء كَي نَصنع جنَازَة ، ننتَظر بَقية نسَاء العَائلة ، و عمتي الوسطى التي إلى الآن لا تَتَحدثُ مع وَالدي مَنذُ سَنة كَاملة من أَجل خَلاف سَخيف لا يُأبهُ لهُ..

لَن نَأتي نَاثرة السُم و العلقم..

إلى جَهنم ، أَنظُر إلى المَشهد الممتَلئ بالمَشَاعر ، كَيف وَقعت عمتي بينَ حُضنَن أُمي تَبكي معها ، أَتت كَي تُعينَها على الحُزن ، نَطقتُ كَلمة أوقفت الدُموع من أماق أُمي:

ـ إننَا نَقلنَا أَبي من السَاعة الوَاحدة ظُهراً..

صَمتتَ البُكَاء و العَويل و لم تَلتفت إليَّ ، و لكن أُمي بحَاجة إلى جُرعة نفاق كَي تُرمم الموقف:

ـ أنتَ لا أُريد أَسمعُ صَوتكَ..

فعلاً أينَ كَانت عَمتي في كُل هَذه المُدة ، و هَل من المعقول بأنهَا عَرفت و هَرفت ، مَرهفونَ شَعبُ النفاق بالهَرف و الجَرف و التَباكي ، نَجلبُ التعَاسَة لأَنُفسنَا كَي نَخلقَ كَمَاشَة للكَذب و البُكَاء، نَطقت عمتي و يا لَيتهَا لم تَنطق:

ـ والله يا مَرت أَخي لم أَعرف ..

عَرفتَ أو لم تَعرف فهَذا شَأنُك أَنت يا امرأة..

كَسَرتُ عَلى أنفي رَأسَ بَصَل و صَمتُ ، أَخذتُ مَكَاناً يُشبهُ الزَاوية بينَ ظل هَاتَينَ المَرأتين ، و بَدأ مُسَلسل الثَرثرة ، الليلُ طَويل و لا زلنَا في بَدايته ، أَنَا في قنَاعَتي بأنَ صَلاة أُمي و استغفارهَا سَوفَ يَذهبُ هَباءً منَثوراً هَذه الليلة..

إنها جَريمة أَن تَجتمع مع شَخص آخر في نَفس الطباع و العَقل و المنطق ، هَذا المشهد بالضَبط المَنطق فيه مَفقود ، ولا أَعرفُ كَيفَ يُفكَرن و بأَي طَريقة يُخرجن كَل هَذه الكمَيات الهَائلة من الكَلام ، إنَها مَعَامل لا تَنفذ ، أَذكرُ جَدتي قَبل أَن تَموتَ بثَلاث سَاعَات نَادت لَأبي و أَعمامي و شَمَرت عن شَفتَيها كَي تَظهَر لثَتهَا التي خَلعت جَميع أَسنَانهَا وأَضراسهَا ، إن أَلم الأَسنَان فَي هَذه العَائلة بَلاءٌ من الله ، هُم هَكَذا يَقولون بَلاء ، نَحنُ نُمَارسُ تَعليق آلامنَا على كَمَاشَة إيمَانية نَحنُ نَصنعها كَي نتَحلى بالصَبر، صَبر ألم الأَسنَان مَثلاً ، لا يُهم فالمُهم أَن الجَدة بدأت تَتَحدثُ و تُوصي و تُعطي النصَائح..

تَخيل ثَلاثَ سَاعات قَبل المَوت و لم تَكف تلكَ المَرأة عن الثَرثرة ، فعلاً أنا لا أعرف مَاذا كَانتَ تَفعلُ طيلة ثَمَانينَ سَنة.. !!

نَعيشُ في مُجتمعات لا يُحترمُ بهَا المَجلس أَبداً ، الجَميع فيهَا يتَكلم بكَثرة و بَشَهية ، و لكَأنَ هذه الصفة صفة مَفقودة بتاتاً، في

المَنازل و الأَسواق و المَعامل و المَراكز الحَكومية و الشوَارع و في المَواصَلات ، يا إلهي لو تَرى الأَفواه كَيفَ تَقصُ و تَحشو و تُلقي و تَقفز ، شَطبٌ صَغير بينَ الفك و الأَنف قادَ الأُمة إلى المهَالك، أُمة كُلُ من فيهَا يُثرثر ، كُنتُ أَصعدُ المواصلات من البَيت إلى المَدرسة ، يَجلسُ الرُكَاب مُتقابلين و مُتدابرين لا يعرفونَ بعَضهم بَعضاً و لأنَنَا أُمة عُرفت بالحُشية و إدخال أَنفهَا في أَدبار الآخرين ، تَبدأ الأَسئلة:

و الله اليوَم شُوب ، ارتفعَ سعر الليرة ، السَيد الرَئيس في زيارة إلى إيران ، الملوخية مَوسم هَذا العَام ، الغَلاء فاحش في البلاد و لم نَعُد نَقدَر..

وهَسيس و نَقيق و جعجعة و لجَلجة و نهَيق و كَلام يَصعد و كَلام يَهبط و رأَسي لا يتَحمل كُل هَذا السُم الذي يَصدرُ من أُمة المليار ثَرثار ، لقد جُعلت الحَدائق للاسترخَاء و الخُروج من مَقابر المنَازل و المعَامل و الثكَنَات العَسكَرية ، يعني و هَكذا ، تَعال يا حَبيب أُمك و شَاهد تلكَ الحَدائق..

عَائلات بأكملهَا مُحملة بنَاقلة حجر صحي إلى الحَديقة من الجَد إلى الأَب إلى الوَلد ، و أَطنان مُطننة من اللحُوم و الشُحوم و الخُضَار لإشبَاع قَبائل بني عَبس ، و مُكَبرات للصوت و إزعاج و طُبول و زُعاق و صُراخ و صَخب مَا بعَدهُ صَخب ، لو

غَضضتَ الطَرفَ عن مَوضوع الإزعاج لما أَفلت لسَانك عن جَبال النفايات التي خَلفهَا قُطَعان البَقر خَلفهم، استَحتَ الكَلاب أن تَتَغوط في الغَابة و تَترك أَثراً لغوطها ، نُريد أن نَستَنجد بالقطَط كَي تَأَتي و تَعلمنَا كَي نَدفنُ بُرازنَا ، عَيب يا أُمةَ العَيب..

جَالسة العَمة بجَانب نَبع الحنَان و لا زَالَ الحَديث في أوله ، طَبعاً ثَلاث سَاعَات من الحَديث المُتواصل و من غَير فَاصل إعلاني ، دَوري كَي أَخُذَ هَذا الفَاصَل:

ـ مَاما.. !!

ـ نَعم يا أُمي !؟

ـ أُريد الذهَاب إلى بيت الخَلاء!!

تُمسكني أُمي بيدي ، قبل أَن تَخرج من الباب تَستأذنُ عمتي بكُل أَدب:

ـ بعد إذنك ، خمس دَقائق و أَعودَ لك..

ـ إذنك مَعك..

تَسحبني و تَشدني بيدَين قد تغلغلَ فيهما رَائحة الثُوم و البَصَل ، أَسيرُ خَلفَ رَائحتهَا التي تُشبهُ رَائحة المطَابخ المُعتقة ، لا أستقذر ذاكَ العَبق الرَائع ، أُحبهُا عندما تُمسكني و تَأَخذني حيثُ أُريد حَتى لو كَانَ شَيء لا أُحبهُ و لكنهَا هَي أَعلم بمَصلحتي ، أَكرهُ التَجمعُات التي تَذهبُ إليهَا ، أَسراب من النسَاء المُلتَحفات

بالسَواد من فَصيلة الغُربان النَقاقة التي لا تَكفُ عن النَقيق و الغَيبة و النَميمة ، أُحبهَا عندما تَخلدُ إلى المَطبخ كَي تُعدَ لنَا أَشهى الوَجبات ، إنهَا وَجبات خَفيفة لطَيفة غَير مُكَلفة و لكنها لَذيذة أُعدت بصدق مُتناهي كَي تُخرسَ جُوعنَا ، و أَكرهُ تلكَ اللحظة التي تَغفو قَبل السَاعة التاسعة مَسَاءً و لا يتَسنى لهَا مُشَاهدة مُسَلسلهَا المُفضَل ، أُحَاولُ أوقظهَا و لكنَ أبي يُؤشرُ لي أَن دعهَا إنهَا مُتعبة..

و أَنا أَيضاً مُتعب يَا الله..

من مَاذا!؟

من هَذا الحَدث الذي حَدث ، كَيفَ فعلتُ بأبي هَكَذا ! ، و لكن بيتَ الخَلاء قابَ قوسَين أو أدنى:

ـ تَفضل ، هذا بيت الخَلاء ، لا تَتَأخر ، أَنا أَنتظركَ هُنَا.

نبتُ في بيت يخَافُ من الجُدران كما يَقولُ أَبي دَائماً إنَ الجُدرانَ لهَا آذان ، شُعوب مُهددة بالمَوت بينَ لحَظة و أُخرى ، تَخشَى من نَفسهَا على نَفسها ، تَهابُ و تَخشَى و تَخاف و تَموتُ رُعباً من خَيالهَا ، شعُورٌ صَغيرة نَبتت بينَ فخذاي أَخشى من إزالتهَا أَن تُؤذيني ، لا أعرفَ كَيفَ و متَى خَرجت، و لأَنَني من أُمة جَبانة خَشيتُ أَن أَسأل أَي أَحد عن هَذا الشَيء، أَدخلُ بيتَ الخَلاء أُقفلُ أغلاقُ الباب و أُقفلهُ بإحكَام مَرة و مَرتين و ثلاث

حتى أَسمع صَوت طقطقة القَفل أن قَد وَصَلت إلى المُنتهى، أَنا المُنتهَى هُنَا لا أُحبُ أَن أَنظُر إلى شَيء غَريب و مُخيف في آن وَاحد..

يا إلهي أَشعرُ بالإمسَاك، أشَدُ بكُل قواي كَي تَهطل تلكَ المُعَلقة بينَ فَوهَة الجلد والعَظم، أتَرجَاهَا أَن تَنزل، إن الوَقتَ يَمر هُنَا بسُرعة مَاذا سَوفَ أَقول لأُمي الآن، يا إلهي مَاذا تُراني فاعل !!

أسمعُ إلى صَوت خَلفَ البَاب أَقعُ رُعباً ، صَوتٌ خَفي يتَقدَمُ صوت طقطقة حذاء يجَرُ بعَضهُ بعَضاً ، رائحة أَعرفهُا تَجتثُ النُور الخَارجي ، يُقرعُ البابُ بقوة:

ـ مطول يا مَامَا.. !!

ـ إلى الآن لم تَنزل!!

أدفنُ نَفسي خَجلاً ، تَصمتُ قَليلاً ، أَصمتُ أَنا معها ، أسمعُ صَوتَ حَفيفَ حذائهَا لعَلها تَعود مَرة أُخرى:

ـ أَنا سَوفَ أَعود إلى غُرفة الانتظار ، عندما تنتهي الحَقني ، و لكن هَل تَعرفُ العودة.. !!

ـ نَعم بالتَأكيد ، أنت اذهبي و أَنا سَوف أَلحقُ بك.

تَتركُ لي حُرية القلق ، فالقلق في هَذه اللحظة مُلكي أَنا ، و الحمَامُ و أوراق الحمَام و المياه كُلهُ مُلكي و حتى الوَقت أَيضاً ، إنهُ المكَان الوَحيد الهَادئ هُنَا ، و مع وُجود المكروبات إلا أنني

سَعيد الآن لأَنَني أَمتلكُ حُرية الصَمت و الصَوت و بعَيداً عن أَفلام النَقيق و النَهيق و كَذب البَشَر..

هَل البشَر نوع من أَنواع المكروبات أَيضاً.. !!

إنهُم مكروبات نَجسة جداً و مع أن البَشَر يعَتقدون بانهم أَكرم خَلق الله و أطهرهَا ، إلا أن قناعَاتي تَزدادُ نَسَبتهَا يَوماً بعدَ يوم أَن نَجاسَة البَشَر أشَدُ خُطورة على هَذا الكَوكب الذي غَرقَ في وَحل الفسَاد من أَفعال البَشر ..

لم أَسمع يوماً من الأَيام بأنَ هُنَاكَ قرداً صنعَ قُنبلة نَوَوية ، أَو أَن فيلاً ركبَ قُنبلة ذَرية ، و لا نَملة صَممت كلاشنكوف ، كيفَ يتهموا الكلاب بأنهَا نَجسة!

و كَيفَ يُلقبونَ الإنسَانَ الخَبيث بالكَلب.. !

و كَيفَ يُطلقونَ على الفاسد و المُفسد بالخنزير.. !

مَاذا فعلت هَذه الحَيوانَات التي قدمت خدمة لبني البشَر منذُ آلاف السنين !؟ ، لم تَفعل شَيئاً أبداً ، نَحن الفاسدين أَولاد الفاسدين الذينَ نَعيثُ في أرض الله خَراباً و عَذاباً و حَرباً و دماراً..

أُريد أَن أَقول شَيئاً و لكني كُلي خجل من الوَرق الأَبيض ، عندما ذَكرتُ البَشر و لكَأَنَ كَانَ هُنَاك سر عَجيب في أَمرهم، لقد زَالَ عني هم الإمسَاك و انفجرت المُؤخرة كَأنها سَيلٌ مُندفع ، عَجيب أَمر البَشَر يَبحثونَ عن سرهم و سرهم فيهم ، سَوفَ أُخمن أَني وَجدتُ كَلمة السر لكُل شيء عَسير، فقط سَوفَ قَول كَلمة:

بشَر!!

عندما تَداهمني مُصيبة ، و تُغلق عَليَّ الأَبواب ، و بدأتُ أصرخُ في بيت الخَلاء بأَعلى صَوتي مَع رَائحة قاتلة كَانت مَحبوسة اثنى عَشرة سَاعة في غَياهب أَمعائي:

- بشَر .. بشَر .. بشَر..

حَتى سَمعتُ صَوتَ البَاب يُطرق مُجدداً و بقوة:

ـ أُمي خُفت عَليك ، هَل أنتَ بخَير !؟..

هي وَحدها التي تَخافُ عَليَّ من نَفسي ، و أَنا مَشغولٌ بذاتي عنها و عَن غَيرهَا ، الوَجعُ إن تَسَلل إلى صَدري كَانت تَشعرُ به، تَأتيني تُمسكُ رَأسي تَسحبني حَيثُ نُورها تَدسُ حَرارتي:

ـ هل يُؤلمكَ شَيء يا بُني!؟

كَيفَ لهَا أَن تَعرف ، من الذي أَخبرهَا ! ، هَل في أَحشَائهَا قطَعةً مني ، تُعطيهَا ذَبذبات صَوتية أَو حَسية عندما أَتألم ! ، إنهَا تشعر و من غَير أَية مُقدمات ، تَشعرُ بالأَلم و الجوع و الوَحدة و الإيمَان و الردَة..

إنهَا حَرب الردَة الحَرب التي أُحبهَا بيني و بينَ نَفسي و ذاكَ الانفصام الخَطير الذي أُصَابني بَسببه الجُنون:

ـ لا أُمي أَنا بخَير ، لَقد انتَهيت..

أَرفعُ مَلابسي بسُرعة ، أَحزمُ حزَامي جَيداً ، فَأنَا من عَائلة لم يَكشف بهَا الرجَالُ عن أَكتَافهم فمَا بالك عن سيقانهم!

أَسيرُ خَلفهَا بعد أَن غَسَلتُ يدي ، و أَعود إلى حَضيرةَ النَقيق و النَهيق و الكَذب و النفاق ، إنهُ المُنبه الوَحيد للنَسَاء ، لسنَا بحَاجة إلى القهوة كَي نَبقى على قَيد التنبه ، فنَقيق النسَاء هُنَا يَكفي..

سَارَ ليل عَلى ضَجيج الغَيبة و النميمة ، لم أَرى أحداً من أَعمامي و لا عَمَاتي ، كَانت أُمي مَشغولة بالحَديث عن زَوجة أَخيهَا السَيئة التي قَلبت البَيت عَاليهَا سَافلهَا ، و عمتي مَشغولة بالحَديث عن عمتهَا التي أَذاقتهَا الوَيل ، و أَنا أُدونُ اللحظة و أَستمع أَريدُ النَوم و لكَن المشَاهد خُلبية ، أَخذتُ زَاوية قَائمة كَي تَكونا أُذنَاي قَريبتَين إليهمَا ، و مع أَن النُعَاسَ قتَلني إلا أَنَ الأحداث السَاخنة أشَدُ جَمالاً من سَرير قارون ، و من قَارون أَمام مشَاهد الدرامَا القَريبة إلى الأَكشَن..

إنَ انكماش الظَلام هُنَا يُقاسُ بميزان التَعب الذي قَاسَاهُ النَاس طيلة النهَار ، فَاللسَان هُوَ العَامل الرَئيسي لَجلب الرزق و دَفع الجُوع و جَلب المشَاكل و المَصَائب..

الشُرطة لم تَعد تُطيق المَشَاكل التَافهة بحَاجة إلى مشاكل كَبيرة ، مَثلاً كَأن يَقتتل عَشيرتَين و تَسيل الدمَاء و تَظهر صورة رَئيس الشُرطة في الصُحف و هُوَ يُلقي مُؤتمراً صَحفياً على حسَاب دمَاء النَاس..

هَل رَأَيتَ حَقارة المُجتمع.. !

الجَميعُ هُنَا يُريدُ أن يَصعد على أَكتاف الضعاف ، و الضعاف لو أَعارونا أَلسنَتهم لأَخذوا حَقهم و زيادة، يعني كمَا يَقول المثل: حَياتهم حَياة جَهنم و يَتَشَاجرون.. !!

من الصَعب أن تَفهم هَذه النَظَرية و أَنتَ شَبعان و كَرشَك قَد وَصل إلى حَلقكَ ، من المُحَال أن تَعي دَرجَة حَرارة البرد و قَدَميكَ مَغروسَتين في مَازوت الشَعب وعلى عَينك يا تَاجر..

التاجر لا يُهمهُ شَيء، يُطعم الكبار و الشَعب يَلعن أبوه، و إذا حَدثت سَرقة في البلد الكماشة جَاهزة سَيقولونَ لكَ:

بأنَ هُنَاكَ مُؤامرة خَارجية على أَمن البلد..

الجوع .. الجوع يا ولاد الحرام..

الجوع إذا التهَم أحشاء الشَعب ، فلا راد للشَعب إلى بنَهب بعَضَه بعَضاً ، و على سيرة الجوع فَأنَا أَتضور جُوعاً، أَتسَاءل .. أَلم تَأتي عمتي و لو بكسرة من خُبز..!!

حمارة..

انجلى الظَلامُ و أَنا لم أشعر به السَاعة السَابعة صَباحاً، كَانت شفاه الأُم و العَمة قد تَورمت من الكَلام المُتواصل، كَأن للحَديث بَقية، و لكن لا محالة هُنَاك أَشياء يَجب أن تُحل بَالقال و القيل..

بدَأت أَقدام النَاس الغُرباء تَرتاد المَستشفى ، حَركَة جُزئية وغُيوم ورُعود جَنوبية، وعَواصف كَلامية لم تَنتهي بعد، اقتحمت المُمَرضة غُرفة النَقيق عَفواً غُرفة الانتظار، بالفعل كُنَا على قَيد الانتظار:

ـ الحمد لله على سَلامته لقد استَيقظ و هُوَ الآن بخير..

كَأنَما باب و فُتح من الجنة ، جُنت أُمي بالخَبر ، فَراحت و احتضنت عمتي المَجنونة ، و بدَأ مَشهد التَقبيل و لكَأنهمَا أَول مَرة يَريان بَعضهما:

ـ رَبي يسلمك و غداً سَوف أُحضر مَعي البشَارة لك..

ـ لا أُريد أي شَيء ، المُهم بأنهُ استَيقظ و صحته و سَلامته هي أَجمل و أَكبر البشَارات ، الحمد لله على سَلامته مَرة أُخرى.

تَطفلت أُمي عَليهَا، ارتخى جَفناها ، و ذَابت شَفتاهَا ، تُريد أَن تَأخُذ دَور الدَرويش الذي بحَاجة إلى طَلب:

ـ دَكتورة..

ضَحكتُ في جَوفي حَتى سَقط قَلبي فهي لا تَعرف الدَكتورة من المُمَرضة، ولكن أُمي مَعذورة لأنَ لسَانها مُخدر بَسبب كَومة الأَحاديث التي أَخرجتهَا من فَمهَا ليلةَ أَمس:

ـ دَكتورة ممكن نَدخل إليه لنَراه..

أَشَفقت المُمرضة عَليهَا:

ـ حَسنَاً ، ليسَ الآن، في السَاعة الثامنة سَوفَ أُدخَلكم..

طَار عَقلُ أَمي ولكَأنهَا أَول مَرة تُريد أَن تَرى مُهجة حَياتهَا، كَأنَ أباهَا قَال لهَا ، ادخلي كَي تَري خَطيبك ، آه عَلى هَذه المشَاعر الرَقيقة الرَقراقة ، هَل فعلاً أُمي تُحب أَبي أَم أنهَا تَخاف من أَن يترُكَها و بعد ذَلكَ يُطلقُ عَليهَا:

أَرملة..

أَنتَ في مُجتمع يَخافُ من النسَاء اللواتي دَفنَ أَزواجهنَّ، لأَنها هيَ الوَارثة الوَحيدة التي سَوفَ تَأكلُ الدَارُ من لحَمهَا وتَكسرُ من عَظَمهَا..

أرملة!!

وأرملة يا سَيدي ما هُوَ المَعيب !؟

العَيبُ بأَصحَاب النَظَريات المَائلة التي لا تَحترمُ ذَاتهَا و لا غَيرها ..

أَن تَقفَ عَلى قَدمَيكَ بعد لَيلة حَالكَة بالظلام..

إنهُ الظُلمُ و الظَلام بحَد ذَاته..

نُريد أن نقفَ فعلياً حَيثُ أَبي..

هَل حَقاً كُنتُ أَتمنى أَن يمَوتَ أَبي كَي يُشفى قَلبي ويُدفنُ سري!،

دَائماً أَمَامَ هَذه الحَدَاثَة كُنتُ أَقول:

هَذا لَيسَ أَنا.. !!

أَنَا ذَاكَ الفتَى الذي كَانَ يتَخفَى خَلفَ ثَوبَ أُمه كَي لا يَرى وَجهَ أبيه، كُنتُ أَمشي خَلفهَا تَمَاماً ، أَختَبأُ من ظله ومن فَضيحتي الآن أَمَامَ عَمي و أُمي، هَل سَيصفعني عمي على وَجهي إن عَرفَ إنَني كُنتُ السَبب.. !

كَانَ خَيالي يَستَبقُ الأَحداث تَمَاماً ، وكُنتُ في صراع معَ الوَقت، وكُنتُ أُطحنُ كُلمَا تَقدمت قدَمَاي إلى الغُرفة التي يَضَعُ بهَا أَبي وَجعهُ، كَانَ وَجعهُ مُوجعاً بالنسبة لنَا، وكَانت النَظَرية النسبية تُشبهُ عدة عوامَل لم أُفسرُ مَا هي، إنهَا هي تلكَ اللطمة التي سَتهطلُ على وَجهي إن عَرفت أُمي بأنَني كُنتُ سَبباً في خَوض أَبي مَعركَة القَلب و شَبكته الطبية..

ـ تَفضَلوا..

إنهَا المُمَرضة ذَات الخَمس و ثَلاثينَ رَبيعاً ، وَجهٌ مُغبرٌ بالبياض و الميك آب ، أَحمر الشفاه الفَاقع اللون الذي يَسيلُ منهُ دَمُ

الخراف ، عَشر أَطنان من العطر الغَير مَعروف قَد اغتسلت به صَباحاً قبل أن تُطلُ على وَجههَا الصَبوح ، خَواتم من الذَهب و ثَلاث سلاسل و حَلق مُعبد بالأَحجار الكَريمة ، و أَظافَر مَطليه لكُل مَا هوَ غَير معَروف ، و مَريولٌ أَبيض قد سَترت كل مَا هوَ يلمع من بنطال جَلدي و قميص مَفتوح الظهر ، مُمرضة على هَيئة فزَاعة و لكن و الشهادة لله بأنَ قَلبهَا أَبيض و أنصع من هَذا العَالم بأَكمله..

في الحَقيقة نَحنُ نُخدعُ بسُرعة فائقة..

نُخدعُ بالكَلمات المُنمقة ، بالأشكال الغَير عَادية، بلون الثياب، والمجوهَرات ، والسَيارات ، والحسَابات البنكية، وغَير ذَلكَ من أُمور يَعتبرهَا الإنسَان بأنهَا مُتممة لنقصه..

نَحنُ لا نتعرف بالنَقص مع أَننا في قمَة النَقص و الفَضَائح الجَارحة ، فَليس كُل من أَخذ شَهَادة دُكتوراه في فنّ مَا يَجب لعلينَا أَن نُصفق لهُ .. دَع الحَياة و المُستَقبل و الأَيام القادمة و أَفعاله هي التي تَشفع لهُ عندَ الإنسَانية..

وليسَ كُل من رَكبَ الخَيل أضحى خَيالاً ، لعَل من تَعلم عَلى رُكبَ الخَيل أَرادوا به أَن يكونَ مَركوباً ليركبوا عَليه و هَذا حَال أَغلب الشُعوب في العَالم ، يُروضُ الشَعبُ على حَمل السَلاح تَحت دعاية شُوربة مَاجي و عندما يُصبحُ زندهُ قَوياً و حَولهُ

يَثور عَليه و على أسياده يَقتلُ أَهلهُ من أَجل كُرسي مَا في بَلد مَا على بَلاط مَا..

فَإن مَات مُغتسلاً بدمه من أثر رَصَاصة طَائشة دَخلت قَلبهُ من أَبنَاء جلدته ، يُحمل على أَكتاف المُرتَزقة و يُطَافُ به أَحياء العَواصم التي تَنبضُ بالظُلم و الفسَاد ، و يُطوى تَحتَ تُراب الوَطن ليُطلقُ عَليه اسم الشَهيد الفُلاني..

طُز بكَ و بالشَهادة..

شَهيد في سَبيل مُرتَزقة الوَطن و من أَجل مصلحة لُصوص الوَطن ، نَم جيداً في أَحشَاء الأرض ، و ادعوا جُيوشَ الدود ليتَناوبوا عَلى نَهش و تَمزيق و شَرخ لحمكَ و نَخر عَظمكَ، استَمع بالعُطلة التُرابية التي لن تَخرج منهَا أَبداً..

وَحدهُ التَاريخ هُنَا يُسجَل ، و الجميع وُقوف مثل صَف الكَلمات على سُطورُ الأَزل يتَتَبعونَ صَدى مَسيركَ حَيثُ الفنَاء و لعَنة القُراء..

اقرأ مَا تَماشَى مع الخُطى ، نَحنُ الخُطى و كُلنَا لكَ كالخُطى نَخطو و نَخطو و لا نُريدُ أن نَخطو ، مَجبورينَ على التَهافُت نَحو الحَياة ، و الحَياة قَاسية جداً ، فَقط لأَنَنَا نُحبُ أَن نَصمُد و نَصعد حَيثُ و الحَياة ، و الحَياة صَعبة ، و نُجردُ آذان مَحاربنَا

المُلطَخة بدمائنا البريئة و نتَكأُ على وسَادة الحَياة ، و الحَياة مُرقعة تُرقعُنَا تَرقيعاً ، تَأَخُذ منَا لتَضَع فينَا..

فُتح البابُ و دَخلنَا ، أَبي مُصفر نَحوَ القبلة يُوجهُ وجههُ، مُبتَسمٌ أَمامَ عَظمة المَرض، هُوَ هَكذا لا يَكسرهُ سوى عَصَى القَدر، يُريدُ ضَربة من غَير أَلم ، ضَربة يَذهبُ بهَا ولا يَعود، لأَنهُ يَكره أَن يَسمعَ صَوتَ الهَزيمة بعدهُ ، ومن بعده إنهُ أنَا و إخواني و أُمي ، و بَيت بُني من أَربعة غُرف بَناهَا بنفسه كَي يُوفر عَلينَا مُستَقبلاً مُهمشاً لا نَعرفُ إن نضجَ معنا أَو بَنا أو فينَا..

إنهُ أَبي الذي نَضجَ هَذه المَرة ، نَضَجَ سَريعاً من تَعب الأَيام التي قَاسَاها ، حملهُ جَدي أَمَانَة إخوته يَعمل في مَطحنة الدَقيق بعد الوَظيفة و في المسَاء يَنزلُ إلى الأَسواق كَي يُنظَفَ المحَال التَجارية مُقابلَ أَجر زَهيد ، هَل شَعرَ أَعمامي وعَماتي بتَعب وَالدي.. !!

الآن أَنا شَعرتُ به حَقاً ، إن تَحملَ خَمسين كيساً من الدَقيق كُلَ يوَم على ظَهركَ أَرحم من أَن تَحملَ همَ عَائلة أذاقتهُ الوَيلات و التعَب..

لم يَقُلهَا يَوماً بأنهُ مُتعب أَبداً ، و لكن تَجَاعيد وَجهه قَالتهَا ، انحناء ظَهره وَشيء عنهُ ، ألم مَفاصله فَضَحَ أَمرهُ ، الشَيب الذي التهَم رَأسهُ جَردَهُ من الأَمان ، صَنعَ لنَفسه بَيتاً من أَمان بعد أن

زَوجَ أخواته لشُبان على مَا يَبدو أنهم أولاد عَالم و نَاس كمَا جَرت العَادة بينَ وصَف البشَر الرائعينَ في المُجتمع..

على مَا يَبدو أنهم غَير رَائعين ، لم أَر منهم غَير من خَافَ عَلى مَصلحته عندَ وَالدي إلى الآن ، عم و عَمة فقط و البَقية في مَحل رَفع نَوم مبني على الغَفلة الدَائمة..

يا سَيدي لا عَلينَا و لا لنَا ، كُل حزب بمَا لَدَيهم فَرحون ، فنَحنُ الآن فَرحونَ بأنَ ذَاكَ العَمود الذي حَمَل همَ بيت وَاشَك على الانهيار قد انفلقت أَجفانهُ و بَانت نوَاجذهُ ضَاحكاً أَن قد انتَصرتُ على المَوت..

هَا هُوَ ينتَصر على قلبه الضَعيف ، يرانَا بعيون غَائرة مُبتلة بالحنَان يَتقاطرُ منهَا دُموع النَصر أو الفَرح برؤيانَا ، هَل فعلاً كَانَ خَائفاً من أَنهُ لن يَرانَا مَرةً أُخرى.. !!

إنهُ مَرةً أُخرى يبتَسمُ للنصر ولنَا وللمَوت ولَقلبه الضَعيف، شُعور لا يُضَاهيه شُعور، إنهُ مَسرور الآن يُريدُ أن يَضمنا، تَبكي أُمي كَأنهَا أَولُ مَرة تَبكي في الحَياة ، بُكَاء المَرأة التي تُحبُ وتَعشَق وتَعي مَعنى العشرة والخُبز والمَلح..

إنهُ الخُبز و المَلح الذي كَانَ أَغلبُ طَعامهَا ، طَعامهَا حُب و عَشَق و قَسوة على رُفوف الحَياة ، و لكَلمَا رَفعتهَا الحَياة قَامة رَفعَهَا التعبُ قَامة إليه ، كُنَا نَرتفعُ فَي ظَننا و لكن في الحَقيقة

هي مُعَاكسة تَمَاماً ، ارتَفاع بطَوله و عُمره و عَقله هُوَ الانحدار بعَينه نَحوَ القَبر..

لا قُبور هُنَا و لا أَكفان و لا عَزاء و لا مُعزونَ و لا دَيوان، إنهُ الفَرح تمَاماً ..

إنهُ الفَرح الذي لم أَرهُ بالعَين المُجردة إلا في هَذه اللحظة..
لحظة تُسَجل و تُؤرخ للكَون بأنني لم أَشهد فَرحة كَهذه الفَرحة ، فَرحة من العَيار الثَقيل ، المُحمل بالصدق و الأَمل، فَرحة ليسَ لهَا أي قوَاسم مُشتركة بدين مَا أو عَقيدة مَا أَو عيد مَا أَو قَومية مَا أو وَطن مَا..
إنهَا فَرحة مُعلقة بينَ كَمَاشَة الحُب و الرَحمة..
حَيثُ انَكبت أُمي بكُل تَعبهَا نَحوَ قدَمَيه ، انكبَ عمي عَلى رَأس أَبي ، عمتي أَخذت دَورَ الذي يُريدُ أن يَنكبَ أو لا يَنكب ، تَركت لي المجَال ، لأَن الأقربونَ أَولى بالمَعروف ..
فَمن المَعروف بأنَني أَنا الذي سَوفَ أُمسكُ بيَديه و أُقبلهَما يَمنة و يسرى ، عُيونهُ كَانت تُلاحقني حَيثما سرت ، هَل لا زَال الغَضَبُ يَسري في أَحشَائه من جراء مَا فَعلت ، و لكن ابتسَامتهُ شَفعت لي عندهُ..
عندهُ ابتسَامة أَطيب مُن الدُنيا و الآخرة..
أَطيب من هَذا الكَونُ برمته ، أَحشَاء تُتَعاركُ في لُب الأحشَاء ، تُريد أن تَقول لهُ بصدى المُذنب أَرجوكَ سَامحني يا أَبتاه ، هَذا هُوَ أَنا الذي يُريد ، و مع أَنَني هَذا أنَا الذي لا يُريد سَأقولُ لهُ:
تَباً لإرادَتي أمَامَ صحتكَ..

هَبطتُ على يَدَيه ، في الرُكن الأَكبر بين أصَابعه ، في باحَة راحَة كَفه ، أَمامَ محراب معصَمه أشَتمهَا و أَضمهَا و أَقبلهَا وأَمسحُ وَجههَا بهماَ..

كَانت خَشنة جداً قَد هَرشت وَجهي ، و لتَهرش وَجهي و لتَلطمُ خدي ، و لَتضَرب جَبهتي ، مَاذا تُراني فاعلٌ أَمامَ عَظَمة الأُبوة، شَعرتُ به شَعرتُ بألمه..

مُتعبة الكَلمات من النُزول في مَنزلة الفَرح و الحُزن ، و لكنَها نَطقت أُمي من بَعد أن أَمطرت عَلينَا بُكاءً و نُوَاحاً ، و انبلجَ فَمهَا:

ـ الحمد لله عَلى سَلامتكَ يا عَامود البيت..

كَانت شفاه وَالدي مُلتصقة ، تلكَ الشفاه التي لا تَكل و لا تَمل بتَاتاً عن الأَمر و النهَي في حَرم البيت بعدَ أن يَعودَ من العَمل:

ـ الله يَسلمك يا أُم البَنين..

كدتُ أن أَقولَ لهُ أَن ابنتَك التي أَرسلتَها لتَدرُسَ الطب خَارج البلد عن أَلف رَجُل ، تلكَ التي تَعبت على نَفسهَا كَي تَكونَ إرادتهَا بَيدهَا و تَكونَ سُلطانةَ نَفسهَا من غَير رَقيب أَو حَسيب ، لا يَعني أَن يَكونَ البَنون هُم ذُكور لهُم مَلامح وأَطراف ذُكورية، المسَألة كَمَسألة الرُجولة..

الرُجولة لَيست مقياس بالذُكورة أبداً ، فَهُنَاكَ نسَاء عن ألف ذَكر و رُبمَا فَاقت الرُجولة شَجَاعةً و صَلابةً ، صَمتُ أَمامَ أَبي ، لَيسَ المكَان للنقاش أبداً و لكن كُنتُ خَائفاً فعلاً هَذه المَرة من مواجَهتي أَمامَ أَهل البيت من أُم و عَم و عمة ، نَطقت أُمي:

ـ مَا بَالكُ يا رَجُل لقد أَقلقتنا عَليكَ ، بالله عَليكَ هَل هُنَاكَ أَحد عَكر مزاجكَ أو أَغضَبكَ في البيت قُل لي من أَجل أَ، أَفركَ رَقبتهُ.. !!

أَسمعُ بأُذن قَلبي هُبوط قَطرات السيرونَ ، و الآلة المُوسيقية التي تَقيسُ تَحرك القَلب و الأُوكسجين الذي يَهبطُ و ينَخفضُ على حسَب حَالة أَبي الصحية ، قُلتُ في نَفسي إن أَجابَ أَبي فإنَ حسَابي عَسير أَمامَ أَهل البيت و سَوفَ أُصَبحُ حَكَاية كُل من ليسَ لَدَيه حكَاية ، يا الله مَاذا سَوفَ أَفعل في هَذه اللحظة!؟، إنَ هَذه اللحظة تَتَأَرجحُ و تَتَدحرجُ نَحوَ الاعتراف:

ـ أَبداً ، لا يُوجد أَحد قد أَغضَبني أو عَكر مزَاجي ، بل هُنَاكَ شَيء أفرحني جداً و لم أَتمالكَ نفسي فسَقطتُ أرضاً لا أَعلم ما الذي جَرى لَي..

استَغربَ الجَميع من حَديث وَالدي و أَكد الطَبيب الذي كَان يُراقبُ حَالةَ أبي و المشَهد الجميل الذي ضَم العَائلة:

ـ نَعم بالضَبط ، هُنَاكَ حَالات من الفرح الشَديدة تُسقط المرء و تَجعلهُ لا يتَحمل ما يَدورُ حولهُ ، فالفرح كالحُزن تماماً..

كَانت وُجوه العَائلة النَاقصة التي لم تَكتمل أَبداً تَسمع و تُفسَر شَرح الطَبيب الغَير مُقنع أَبداً و تَدخلت أُمي بسرعة، إن الفُضُول قتَلَهَا ، كَأنَني بدأتُ أُفسر مَا يَدورُ في عَقلهَا آن ذَاكَ، لربُمَا دَار في أَحشَائهَا بَأنهُ رَبح في اليانَصيب أو أَنَ فيزة الحَج قد خَرجت أو أَنهُ وَجد عَملاً مُنَاسباً لَيقتلعَ أَبو الفَقر من جُذوره ، كَانت أُمي تَفكيرهَا مَادَي بَحت لأبعد مَا تَتَصور ، تُريد أن يَكونَ لهَا حَسَاب في البنَك ، تُريد أن تُجدد الفرش كُل ثَلاث سَنوات، تُريد أن تُحضر غَسالة جَديدة أو تلفاز جَديد أو طَقم من الكنَب، تَدخُل في الجمعيات الصَغيرة و الكَبيرة ، تَجمع القَرش تلوى القرش لمَوسم الشتَاء أو مَوسم تَموين الزَيت و الزَيتون و الدَقيق و رب البنَدورة و المُربى و غَير ذَلكَ من زُبد و سمن و سُكر ، تَحسُب لَيلاً نَهاراً تَكاليف وَجَبة الغَداء، وتَكاليف الخُبز و الحَليب و مَا شَابه..

لعلَ هُنَاك خَبر جَميل سَوفَ يُخرجهم من الأَزمة المَالية التي وَقعوا بهَا مذ أَن تَزوجوا إلى هَذه اللحَظة:

ـ بشَر مَا هُوَ الخَبر الحلو !؟

كُنتُ أَقول لو أَن أُمي أَجلت هَذا الحَديث لاحقاً ، لأن صَحت من كَانت تَبكيه و تَبكي لأَجله ليست على مَا يُرام ، لعل أُمي تُريد من زُبدة هَذا البلاء الخَبر المُفرح ، لعَل العَادة أَن الأَحاديث في حضرة المَريض تُكون لاحَقاً ، و لكنَ أبي غَمزني بعد أَن نَظرَ إليَّ:

ـ ابنك..

سَقط قَلبي عندما أشَار إليَّ ، يا وَيل قَلبي إن باحَ بمَا جَرى بيننا، إنَ عمتي تُريد طَرفَ خَبر كَي تَتَناقلهُ هُنَا و هُنَاكَ بينَ الجيران، الله وَحدهُ الذي لم يَسلم من لسَانهَا ، كانت جَدتي تَقولُ عنها بأنهَا حَافظة للسَر و كَاتمة للأَمانة ، على مَا يَبدو أَن فَراسَة جَدتي غَير صَحيحة لأَن جَارتنَا أم خَلدون كَانت تَقول عنهَا أن عَمتكم لهَا أَربعة و أَربعونَ لساناً و أَعانَ الله من وَقع تَحت مخالب لسانهَا و الذي نَفسي بَيده غَير الله لن يُنجيه منهَا و من شَباكهَا..

زَادت الحدة في ابتسامة أَبي ، زَادَ النُورُ في وَجهه ، و قلبي يَتدحرجُ من أَعلى مَكَان و أَهوي خَلفهُ و أَطير و أحاول أَن أُمسكَ في حَافة صَخرة ، و لكن المُنحدر صَعب جداً ، أُمي تُريد أن تَعرف حَالاً:

ـ و ما به ابني.. !!

شَدَ أبي كَفهُ بكَفي ، كدتُ أن أُفلتَ يدي ولكنَ يدَاهُ فيهما الأمَان الذي كُنتُ أَبحثُ عنهُ ، إنهَا يَد مُشبعة بالثقة ، يد لا تَخون و لا تَسرق و لا تَنهب ، يَد عَرفت الشَقاء و لُقمة الحَلال:

ـ إنَ ابنَك وَعدني أَن يكونَ طَبيباً جَراحاً مُختصاً بجراحة القلب..

شَهقَ قلبي و تسمرَ في مَكانه ، هَبطتُ و شَهقتُ و تَعبتُ حقاً، كَيفَ نَفثَ في قَلبي ذَاكَ الأَمل المُشبع بالحُب .. كَيفَ فعَلَهَا !!

كُنتُ أُريدُ السير إلى ذاكَ الأمَل الذي يُنفَثُ في أَحشَاء الحَشَا، أُريدُ أن يَكونَ لي إرادَة فَذة تَسحبُ بي إلى سَواحل النَجَاة، ولكنَ كَيفَ تَكونُ النَجاة في مُجتمع يُبجلُ اللصوص ويُحقَر أَهل الحَق ! دَائماً يَجب أَن يكَونَ هُنَاكَ طَرفين ، لا يُوَجد هَزة في العَالم نُسَجت بَيد وَاحدة ، يَجب أَن يَكونَ هُنَاكَ سَيفين سَيفٌ للحَق وسَيفٌ للباطل ، إنَ أَهل البَاطل يَنعمون طيلةَ حَياتهم في المَال و القُصور و بينَ الخَدم و الحَشَم و عندَ الموتَ نَظُن أَن الله سيَختم لهُم بَخاتمة سَيئة ، و لكن أَهل الحَق مُلاحَقين في الأَرض يَعيشونَ على كَفة بُطونهم يَتضورونَ جُوعاً و إن انتصروا يَوماً فَذلكَ بعد أن يَبلغوا من العُمر عتياً و هَيهَات أن يَنعمونَ بنصيبهم بحُريتهم ، و لكن هُنَاكَ أَمل أُختي التي بُعثت إلى بلاد الغَرب لتَدرُسَ الطب على حساب الدَولة كَانت قد كَتبت كَلمَات للشَاعر مَحمود دَرويش فَوق مَكتبهَا التي بددت به نَفسهَا في الدَراسة مَقولة:

على هَذه الأَرض مَا يَستَحق الحَياة..

إنهَا الحَياة تَعودُ ثَانية لرجُل أَماتَني و أَحيانَي في يَوم و لَيلة، بينمَا كَانَ على فراش المَوت يَتقلب ، كُنَا نَموتُ عليه و علَينَا لأَن المَشوار لم ينَته و أَمي لا تَمتلك كُل تلكَ المَسؤولية رُغم قُوتهَا و جَبروتهَا ، و لكن تلكَ القُوة رُبمَا تَنهار إن ذَهب عمادُ البَيت و

أَسَاسهَا ألا و هُوَ أَبي ، إنني اكتشَفتُ ضعفهَا أمَامَ مَوجة البَلاء التي حَلت بهَا قَبل لَيلة ، يَزول الليلُ و تَطوي السمَاءُ حُلكتهَا لتُنير الأَرضَ بالشَمس الحَارقة المُلتَهبة ، و تَنفرجُ في القلب عُقدة أبني عَليهَا مُستَقبلي..

مَا مَعنى أن أكونَ كَما يُريد ذاكَ الرَجلُ.. !

المَعنى الحَقيقي أن أَنجو بَنفسي من هَذه الحَادثة حَيثُ الكُتب والاجتهاد ، كُنتُ أَحلُم بَشَيء صَغير بعيد عن فُضول النَاس وقَرارتَهم و حتى عن فُضول أَهلي..

أُريدُ أن أَكونَ رَسَاماً ، كَانت خَالتي تَقولُ لي هَذه الهواية لا تُطعمُ خُبزاً و لا تَسقى عَطشاً ، عَليكَ أَن تَختار مهنة باللون الأَبيض أو الأَسود فعَالم الأَلوان ليسَ لنَا يَا خَالتي..

كُنتُ أُكذبهَا ، و أَستحقرهَا ، أَيعقل لأَنهَا صَادقة معي.. !

أَيعُقل لأَنَني كُنتُ أَنانياً و سمَحتُ للخَيال أَن يتَطور و يسَرح حَيثُ نُور اللون الأَزرق ، إنهم يَعيشونَ على لونَين إمَا أَن تَعيش أو إمَا أن تَموت..

إمَا الأسود أو الأَبيض .. و الذي يَختار النَصَاع و الإيمَان نوعٌ قَليل ، قَليل جداً ، طريق النُور كَما كان يَقول شَيخ الحَي طَريق مُمتلئ بالأشواك ، لم أَرى الشَوكَ في يده أَبداً و لم أَرهُ يَمشي فوق كَومة من الصَبار ، بل بالعكس تَماماً ، لدَيه بيت أَجمل من

بيتنا ، كَانَ يمتلك سَيارة فارهة من نَوع فَخم ، لباسهُ الأَبيض الذي يُؤتى به من الأَرضي المُقدسة في بلاد الحَرمَين من النَوع المَاركة الذي لا نَستطيع شرائهُ ، و أَولادهُ في أَجمل المَدارس و الجَامعات و برُغم تَدني علامَاتهم الدراسية إلا إنَ النَاسَ تُقدسهم و تُبجلهم و تَحترمهم و تُنزلهم في مَكان لا يَليقُ بمَكانهم ، و عندما أعتلت أُختي المرتَبة الأُولى في الدَراسة لم نَره أتى يُبارك و لم نر أحداً من أَبنائه!!

رُبمَا كَان عندهُ مَسؤول أو شَيخ جَليل من أحد المُدن الأُخرى، أو كَانَ مَدعواً إلى وَليمة لأنَ مَولانَا يُحبُ المنسف باللحم البلد..

كُنَا لا زلنَا لا نُحبُ أن نَذهب إلى دَعوة فَرح أو تَرح ، نَذهبُ إلى الذينَ يُسَاوونَا مَنزلة في الفقَر و العَذاب ، لأَن المَثل يَقول لا يَحنُ إلى العُود إلا غُصنه و نَحنُ أَغصَانٌ نَبتنا من الزَيتون و النَخل و هُم من المَوز و المَشمش..

عَرفتُ بعَد دَهر من الكَذب بأنَ مَولانَا كذاب..

كَانَ يعَتلي المنَابر و يخَطب بنَا أن احذروا أَبواب السُلطَان ، آه من السُلطَان و من أبوَابه ، فلولا السُلطَان و أَبوابه لمَا وَصَل مَولانَا إلى هَذه المنَصة ، كُشفَ البَيان عندما جَاء السُلطَانُ و من وَالاهُ إلى مَولانا بمُنَاسبة زَواج ابنه..

ابنهُ الذي كَان يَسرقُ من بيت الدَجاج الذي كَانت تَقتاتُ عَليه جَدتي و جَدي في كُل صَباح ، لصَ البَيض و ابنهُ الثَاني الذي كَانَ كُلَ يَوم يَأتي إلى المَدرسة و لم يَكتُب الوَظيفة و كَانت تَقول المُعلمة:

هَذا ابن مَولانَا قدسَ اللهُ سَرهُ..

رُبمَا نَحنُ أبنَاء الَشياطين حرق اللهُ سرنَا..

أصلاً في هَذه المَدينة الكَاذبة المُنَافقة لا سرَّ لنَا ، نَعيشُ و نَموتُ و نَحنُ مَفضوحينَ للعَلن ، يَشتمُ رَائَحتنَا القَريب و البَعيد ، وَحدهُ اللهُ من يستَترُ عَوراتنَا ، و لولا البنطال الذي كُنتُ أَتناوب عليه أَنا و أَخي لكَشَفَ اللهُ عوراتنَا..

إنَ طَريق الشَوك الذي كَانَ يَرتَديه مَولانَا طَريقاً جَميل ، أَحببتهُ ، أُريدُ ذَاكَ النصَاع كَي أَكتُب عَليه مُذكَراتي ، أُريدُ عَباءة مَولانَا كَي أَشدهَا على قطعة كَبيرة من الخَشَب و أَرسُم عَليهَا كُل مَا كَان يُحذرنَا منهُ..

أُريد أَن أَرسُم عَليهَا الشَيطَان، و الخُمور، و الزنا، و السُلطَان، و رفاق السُوء، والرشاوي، والمَيسر، والقمار، والمُتبرجَات، والمُفسدين، وهُوَ..

من هُوَ ؟..

مَولانَا..

لا عَلينَا ، كُنتُ أُريد أَن أَعيشَ في عَالم مُبتهج بالأَلوان ، عَالم خَالي من أَهل البياض و السَواد ، عالم فيه عطر بروائح عدة ، روائح لا نَعرفهُا ، روائح نُريدُ أن نَعرفهَا..

إنَ النفاق استَفحل في القوم حتى هَلكوا و أَهلكوا النَاسَ من حَولهم ، قَالوا أَهل الفسَاد يجب أن تُعلموا أولادَكم القيم و عَاداتنا وتَقاليدنَا و ديننا الحَنيف ، و لكن من أَجل مَاذا ، لمَاذا أَهل الفسَاد يُنفقون جُلَّ أَموالهم في مَشَاريع الفسَاد !؟

لم يُفكر أَحد في هَذا الشَيء أَبداً!!

من أَجل أن يُخلوا سَاحةَ الفسَاد لهُم ، فَلا يُريدون أَن يَشغل هَذه السَاحة سواهم ، لأَن هَذا المَلعب يُريدُ حيتَان عملاقة ، وهُم أهلاً لهَا..

نحنُ أَهلاً لشَيء آخر..

نَحنُ نَستَيقظ صَباحاً نَركضُ إلى فُرن البلدة قَبل أَن تَطلعَ الشَمس من أَجل لُقمةَ الحَلال المُغمسة بألف ألف رَفسة ، و عندما نَصلُ إلى الفُرن نَجد ذَاكَ الصَف العشوائي الذي يَصطفُ النَاسُ خَلفَ بَعضَهم البَعض كَالغنم ، يَقفونَ بَصمت تام كَأنهم في صَلاة!!

أَليس البحث عن لقمة الخُبز صَلاة!!

نعم هُم في صَلاة بلا رُكوع و لا سُجود و لا تصليب ولا تَثليث، إنهُ هَذا المكَان الوَحيد الذي يَصطف به أَهل الصَلاح و الفسَاد و

الذين يَكرهونَ بعضَهم و يُبغضون أَنفُسهم ، و يَحقدون على جُيوب البعَض ، و كَثير منهُم آكلينَ للحَق و نَاكرينَ للمَعروف.. جَاؤوا من أَجل تلكَ اللقمة..

حَمير القَوم يَصمتونَ إن جَاء المُختار ، أو أَبن المَسؤول، أو رَئيس الشُرطة ، تَزحفُ تَلكَ الكباش نَحوَ الصَف الأول ، مُخترقة الجَميع مُخترقة الرُؤوس و من ثَمَّ إلى نافذة الفُرن ، يبتسم الخَباز العَبوس الذي وَجههُ كَالبُركَان ، و رُبمَا في وجه زَوجته لا يَبتسم ، ثُم يُعطي لَصوص البلد مَا يريدون و من غَير مَال ، و على عَينك يا تَاجر ..

وعَلى عَينك يا تَاجر..

تَركتُ حُلمي ، أَلواني ، ريشتي ، صُحُفي البيضاء التي تُذكرني من يدعون الولاية لله تعَالى ، الطَباشير المَسروقة ، الشَوارع الوَاسعة ، مُخَيلتي..

هَكذا و من غير أَي قَانون من قَوانين الجَاذبية ، يَجب أن تَكونَ كَمَا يُريدونَ هُم ، من أَجل أَترفع رَأس العَائلة ، و يَبقى في دَاخلكَ شَيء مَكسور إلى أَن يَرثَ اللهُ الأَرض و من عَليهَا ، و اللهُ خَير الوَارثين..

لم تُصدق أُمي بأنَني سَأكونُ طَبيباً جَراحاً يَوماً من الأيام ، أَنا الفاشل الذي كَثُرت عَليه الشَكاوى ، كَانت أُمي تَعرفُ كُلَ شَيء عني في المدرسَة ، كَانت تُخبئ المصَائب التي تَعرفُها كَمَا تُخَبئ دَم حَيضهَا تَمَاماً ، لا تُريد أَن يَعرفَ أبي، سَامحها الله ، يا لَيتَ أبي عَرف حَتي يُنقذني من بدَاية الطَريق لا من آخره..

اليَوم أَبي عَرفَ كُلَ شَيء..

الحَقيقة كَانت بالنسبة لهُ صَادمة ، كَشَف مَا كَانت تُخبئه أُمي، وبَخها شَرَّ تَوبيخ ، قَال لهَا:

ـ إنَ ابنتَك سَوفَ تَذهبُ إلى بيت زَوجها ، فَهي ليست لنَا ، أمَا هَذا الذي يَجب أن نتعبَ عَليه كَي يسندَ كبرنَا ، تَخيلي أَن يَكونَ

ابنك فَاشلاً ، مَاذا تَتوقعين أن يُطعمك ، هَل تَعتقدينَ بأنَك سَوفَ تَأكلينَ لحماً ، بالطَلاق كَسرة خُبز سَوفَ نشحدها من الخَلق..

خَرجت أُمي عن صَمتهَا آن ذاك ، لأنَ الإهانة وَصلت إلى قعر صَدرهَا ، شَعرتُ بانهَا انكسرت بَسببي ، و نَطقت ما لا يُحبهُ الرجَال في سَاعة عدم وَعي:

ـ انظر إلى ابن فَلان الذي تَقول عنهُ فاسد ، مهرب دُخَان ، و يَعيشونَ في قُصور و أُبهة ما بعَدهَا أُبهة..

تَفلَ أبي في وَجههَا وَقتهَا ، و قَال لهَا:

ـ ثلاثة يَمين بالطَلاق إذا سَمعتُ منك هَذا الكَلام سَوف تَذهبين إلى بيت أَهلك ، نَحنُ لم نأَكُل لُقمة حَرام في حَياتنَا ، إذا تُريدين أن تَعيشي تلَكَ الحَياة السَوداء اذهبي إلى بيت أَهلك و تَزوجي ممن تُريدين..

يا إلهي مَا هَذه المُصيبة.. !

عَرفتُ بأنَ الحمل الذي ألقاهُ عَليَّ أبي كَانَ ثَقيلاً جداً ، جداً إلى مَا بعَد المَوت ، و إذا لم أَكُن كمَا يُريد فَأُمي سَتكون في خَبر طَلاق..

أَنا نُقطَة الخَراب التي أَتَت إلى هَذا المَكَان ، رُبمَا أنا سَبباً في انَدلاع الحَرب العالمية الثَانية ، أو لعَلي أَنا الحرب العَالمية الأولى ، نَعم دَائماً لكُل قَصة هُنَاكَ حَلقة أُولى أو صفر..

الأصفارُ هُنَا يَجب أَن تَتَغير إلى مئات ، و إلا سَوفَ تَحلُ الكَارثة على البَيت ، خَرج أَبي من المُستشفى ، لا أَعتقد بأنَ أُمي عَادت كالسَابق ، أَخذت من المطبخ مَكَاناً لهَا ، لم تَعُد تَجلس معهُ في غُرفة المعيشة لمُشَاهدة التلفاز ، و لا لمُنَاقَشَة المَشَاريع التي سَتَخوضها في ما بَقي معهُ من حَياة ، كَانت تَنتهي من مَطبخهَا و من ثُمَّ إلى غُرفتهَا ، تُفردُ سَجادة صَلاتهَا إلى الله، تَشكو ما بقلبهَا من كَسر لا يُرمم ، تَدعو الله عَلى كُل الذُكور من كُل قَلبهَا و من روح مَجروحة ، تَنزفُ من العَينَ دمعة ، تَهطلُ على خَدهَا ، تَمسَحها بيمينها، و تَأخذُ نَفساً عَميقاً ة تنَام إلى الفَجر..

لم تَعُد تلكَ المرأة النَقاقة التي تَنق وتَطلب وتأمر وتَنهى وتَفرد سُلطَتهَا بعد غياب والدي أَبداً، تقاعدَ وَالدي لأَسباب صحية..

وكُنتُ أَنظرُ إلى أُمي كَيفَ تَذبُل و تَذبُل و تَذوب كَالشَمعة ، كُنتُ أَتألم عَلى صمتهَا و ما يَدورُ في صَدرهَا من مَعركة بينَها و بينَ الوُجود ، رُبمَا كَانت تَقول لا وُجودَ لي في حَضرة رَجل لم يُقدرني أَمامَ أبنَائي..

انتَهى العَام مع صَمت البيت المُخيف ، صَوت تلفاز عَالق على المحطات الأَخبار ، رَائحة سَجائر مُندلعة من غُرفة المعيشة ، و

غَفوة طَبيخ تَتَأججُ من بوابة المَطبخ ، سُكون بلون رمادي يَقتلُ القلب..

ـ أنتَ أتَيت يا بُني.. !

إنهُ أبي الذي لا يَكفُ عن الأسئلة و مُضَايقة القادم و الذَاهب، جَلسَ في البيت و تَرك الأصحاب و الأَحباب ، إنهُ يَقول إنهُ جَلسَ من أَجلنَا ، صُدورنَا تنَطق ولكن بلا صَوت:

نَحنُ لسنَا بَخير.. !!

أبي يصَبُ غَضبهُ على أبنَائه عندَ كُل دُخول و خُروج:

ـ كَيف كَانَ آخر امتحان لكَ اليَوم.. !

جَلستُ على الكنب كَي أُريح لصَدري من صُعودي على السُلم:

ـ اليوم قدمتُ امتحان ممتاز ، بل أَكثر من ممُتاز..

يَنفثُ أَبي سيجَارته حَيثُ أنَ الطَبيب حَذرهُ من التَدخين ، أبي أصبح يشكُ و يَظنُ بالجميع ، لم يَعُد يُصدق أحداً في البيت:

ـ غداً يذوب الثَلج و يَبان المَرج..

إنهُ مثَل كنَاية عدم التصديق بمَا قُلتُ آنفاً..

تَأتي أُمي من بعيد تَتَمايل كَأنهَا قَصَبة ، هَزيلة و نَحيلة أَخشى أن تَقع من اهتزاز يَديهَا و هي تَحملُ فُنجان الشَاي ، تَضَعهُ أَمامَ أبي و تُحرك لهُ السُكر ، أيعُقل أن تُصبح هَذه المَرأة الاجتماعية

خَادمة لَرجُل أَنجبت لهُ قَبيلة من الذُكور و الإناث من بعد أعوام من الحُب ، ممن تخَاف يَا تُرى.. !

من الطَلاق مَثلاً أو من أن تَعيش بينَ إخوتهَا.. !

لقد تَركت الثَرثرة بتَاتاً ، و لم تَعد تَذهب إلى أحد ، و لم يَعُد أَحد يَأتي إليهَا ، لقد باعت ثلاث أَساور من يدهَا كَي يأتي لي أبي بمُدرسين للفيزياء و الرياضيات إلى البيت ، كَانَ عَاماً صَعباً جداً، في هَذا العَام يُحددُ مَسَاري إما إلى النعيم أو إلى الجَحيم، أسَررتُ مَا فعلت أُمي في نَفسي، مَا أقسَى هَذه الحَياة، تَركت أُمي فُنجانَ الشَاي وعادت إلى المَطبخ، كَانت رَائحة المُلوخية التي تَصدرُ تُوحي بأنهَا لَيسَت كالرائحة التي كُنَا نَشتمها من قَبل أن يَمرض أبي، لم نَعُد نَعرف من هُوَ المَريض، أمي أم أبي !؟.

ـ نَعم بنُي ، إذا أحضَرت عَلامة الطب فَيجب عَليكَ أن تَختار هَديتكَ من الآن، فإنَ طَلبكَ على لسَانك ، أنتَ تَطلب وأَنا أُنَفذ..

لقد تَذكرتُ شَيئاً في دمَاغي كَانت تُرددهُ أُمي قَبل أن تَدُخل في حَالتهَا النفسية ، كَانت تَدعو دَائماً أن تَزور بيت الله الحرام ، و بعد أن تَغيرت بسَبب تَغير أبي لم نَعُد نَسمع لهَا صَوتاً و لا دُعاءً في البَيت:

ـ نَعم أبي أُريد شَيئاً و أَتمنى أن لا تَرُدني.. !!

أبي البُركَان الثَائر في المنزل ، الذي لم يعُد يُطاق ، قال لهُ أخوه الذي يصغرهُ سناً : يَا أَخي كم أَتمنى أن تَخرج من البيت كَي تُغير من هَذا الهَواء في البيت ، إنَ البيت ضَجر منكَ!!

غَضب أبي من أخيه و طَردهُ من البيت ، إنهُ الآن صَديق التلفاز و السجَائر و النشرات الإخبارية و الأَرصاد الجَوية و السَياسية، إنهُ رَجل لا يَكشفُ عن النَافَذة و لا يَعرف كَيف هَي حَالة الطَقس، ولكن تَأتيه الحَالة عَبرَ تلفازه الذي لا يُطفأ إلا عندما ينامُ سَهواً و يَقعَ تَعباً:

ـ مَاذا تُريد، قُل و أنَا سَوفَ أُنفَذ و لكن بشَرط أن تُحضر العَلامة التي أُريد.

ـ أُريد أن أَذهب إلى بيت الله الحَرام أَنا و أُمي..

أعادَ وَالدي من هَيئته ، استندَ على الوسَائد التي سَئمت منهُ، ومع أَنني لا أُؤمن بهَذه المَواسم و لا بطقوسهَا و لا تُحرك بي سَاكناً بَسبب القراءة المتَواصلة لبعض الروَايات و دُخولي في عَالم مُتحجر جَاف قد سُحبَ منهُ عَصَبَ المَشَاعر و الأَحاسيس:

ـ هَل أَنتَ فعلاً تُريد الذَهَاب إلى بيت الله الحَرام مع وَالدتكَ، أَم أَنَكَ تُريد أَن تَقضي حَاجة أُمكَ.. !

المَشهد في المطبخ كَانَ كَمَجزرة قامَت قيامتهَا بصمت مُخيف ، أُنثى كَانت تَحملُ البَيت بدَعائم المُلاحقة ، فَجأة اختفت ، المَاءُ يتقاطرُ من صنبور المَاء ، يُسمعُ لانحَدارهَا ضَجة ، يقعُ القَلبُ من الصدَى ، يلتَهمُ المَدى بكُل مرونة ، أُمي لم تَعُد أُمي ، لقد كُسر قَلبهَا بسببي أيُعقل أَن يَعود نَبضُهَا يَخفقُ مرة أخرى: !

ـ أَنا أُريد أن أَذهب مع أُمي فقط..

لاحَظتُ ذَاكَ الجُرح الذي نَزفَ من قَلب أَبي ، و لكنَ أَبي أَمضَى أعواماً و لم يَتنبه لتلكَ المَرة التي ينَزفُ قَلبهَا من غَير تَوقف حَتى أَضحت صَخرة مُتمركزة صَامتة في أَحد زَوَايا البيت ، نَطقَ أبي وَجعاً كَأنهُ شَعرَ بالذنب الذي أَرتَكبهُ:

ـ و أَنا.. !

أُريدُ أن أُلقنهُ دَرساً من غَير أن يتنبه لي ، أو أَن يَلمح أَنني أُريدُ كَسرهُ ، هَذا الرجُل لا يُكسر ، إنهُ كَشَبح خَيمَ على البَيت بل عَلى حَياتنَا ، لا يُريد لأَحد أن يتَنفس ، يُريد الجميع كمَا يُريدُ هُوَ لا هُم ، في أغلب الأَحيان و من بعد أن جَلدهُ الزمَان بسياط الذُل و الفقر و ذَاقَ الوَيلات من أَجل لُقمة الخُبز ، لا ألومهُ أبداً ، كُنتُ أراهُ كَيفَ ألبسهُ التَعب لباسَ الضَعف و العَصَبية ، هَا هي العَصَبية تَهبطُ على زَوجته التي أَحبهَا و وَقفت مَعهُ في أَحلك حَالاته ، هَا هُوَ يُهينهَا أَمامَ أَبنائه ، تَصبر ليسَ من أَجله ، بل من أَجلنَا ، مع أَنَنا نَحنُ من سَببَ لهَا هَذه العَاصفة:

ـ أَنا آسف يا أَبي ، أُريد أن أذهب أَنا و أُمي فقط..

صَمتَ أبي ، كَصَمت أُمي ، صَمتَ المسَاءُ في لَحظة ظُلمة ، ظُلمة الظُلم ، و ظُلمة الليل ، و ظُلمة العَهد الذي لم يكَتمل في نهَاية العُمر..

سَمعت أُمي بالخَبر ، تنفست الصُعداء، شَعرتُ بأنني أنقذتُهَا من الخدمة الإلزامية ، أول مَرة أُشَاهدُ أَمي عن قُرب ، إنهَا لَيست أُمي أبداً، جسمُهَا نَحيل جداً، وَجههَا شَاحب يمَيلُ إلى الصُفرة، رُبمَا هي مَثلي تُريدُ شَيئاً ولكنَ إرادَة الآخرين سَيطرت عَليهَا..

ضَمتني أُمي بحَرارة، ثدييهَا اللذان كَانَا يُحملان بحمَلاتXXL، قد جُفَ فيهما الحُب من الهَجر، أَشعُر بأنهَا من غَير ثَديين،

مَمسوحَان دَاخلَ قميص بيتي ، رَائحتهَا التي يَغلبُ عَليهَا رَائحة المَطبخ ، القُدور فَوقَ البوتجاز ، البصَل و الثُوم اليابس في سَلة القش ، الثَلاجة و اللبن الحَامض ، بقايا قطَع لحَم غنم أَو أَفخاذ دَجَاج ، و خُضَار مُجففة مثل الكُوسَا و الباذنجان.

إنَ هَذه المسَاحة الصَغيرة أَغلى مَا تَملك ، لأَنها في الحَقيقة لم تَعُد تَملك شَيئاً أَبداً سوى الصَمت ، أَتعبني صَمتهَا المُفزع، تَتَوالى السنين تلوى السنين وهي قَد أَطبقت كُل مَا يدعو للحَديث..

فَي الحَقيقة هَذا ليسَ أَنا أَبداً..

أُريد أَن أكونَ كما يُريدُ غَيري ، السَعَادة لَيسَ حَالة يَعيشُهَا الإنسَان و تَنمو مَعهُ ، الإنسَان في الحَقيقة يُولدُ حزيناً فيبدأُ يُفتشُ عن السَعادة بكُل قواه و مَاله..

فَمُستعد أن يَتَخلى عن كُل شَيء من أَجل أن يَكونَ سَعيداً ، هُنَاكَ من يَرى بأَنَ الأقارب عَقارب فلا بُد من خَلعهم لأَنهُم شَوكة ، و هُنَا سَيجدُ سَعادة أَبدية ، أَو هُنَاكَ رَفاق سوء أو مَال قد جُلبوا بطَريقة مُخالفة للقانون كَسرقة و نَصب و نَهب وغَير ذَلكَ..

الإنسَان عبارة عن كُتلة تَغلي كَقطعة الجمر ، تَؤذني نَفسهَا وأن تنَاثرت سَتُؤذي غَيرهَا، ومن هُنَا كُنتُ أحلُم أَن أَشتري مرسماً إن نَجحتُ في الامتحان التَوجيهي ، و لكن لا بُد من أَن تَتَخلى

عَن أَشيَاء هي مُتمركزة في أَحشَائكَ ، من أَجل أن تَسيرَ الحَياة ، فالحَياة تَسَير شئتَ أَم أَبيت و لكن تَذهب عَليكَ أنتَ يا مسكين..

كُنتُ أُريد أن أَسُدَ جُوع ذَاكَ الفتَى الذي لم يَترُك شَارعاً في الحَي إلا و لونهُ ، لم يَبقى طَبشوراً إلا و سَرقهُ ، لم يَبقى خَيالاً إلا و رسَخهُ ، كَانَ ذَاكَ الفتَى يُريد أن يَكون كَما يُريد هُوَ و لكن المُحيط مُتَلاطم بالغَير ، أَنكَ في أَعيُنهم أَنتَ وَجبة دَسمة و يُريدونَ أن يتَناوبوا عَليكَ في وَقت فَراغهم..

سَوف تَبكي مَدى الحَياة إن اكتشَفت بأن كُلَ حَياتهم فَراغ ، فَأنتَ أَحد الجَراء و الخَراف في حُقول مطامعهم ، عَليكَ أن لا تَحلم أبداً ، الأَحلامُ هُنَا حَرام تَمَاماً كَتَدخين السَجائر و لحوم النسَاء المَكشوفة و غير ذَلكَ من مُحَرمَات قد أَكدها عُلمَاء الجَيب و الغَيب..

أَتخلى عن ذَاكَ المَرسم ، عن تلكَ الأَحلام ، أمحو من ذَاكرتي طفل الخَيال الذي أرقني و أَرهقني ، من أَجل أن أُعيدَ الحَياة لمن منَحتني الحَياة ، و مع أنني لستُ سَعيداُ بوجودي بينكم في هَذه الحَياة ، فَلا بأس أَن أَقول لهَا:

شُكراً..

رُبمَا لن أَقولهَا أَبداً ، لأَنَني سأشكُرهَا بطَريقتي الخَاصَة ، أُريد الذهاب معها إلى بيت الله الحَرام ، من أَجل أن أُطهر هَذا القلب

من أَلوان الحَرام ، و مع أَنَني استَفتَيتُ قَلبي في أَلوانه الخُلبية و أَفتى لي بأنَ الهَوى في محراب الهَوى حَلال ، و من حَرم عَليكَ أَلوان الوَجد حَرم اللهُ عَليه هَيبةَ الوَجد ، فَكُنتُ أَنتظَرُ تلكَ اللحَظة التَاريخية الذي يَخرُج منهُ مَحصولي الدراسي من أَجلهَا هيَ..

أول مَرة منذُ أن كَتمت فمها عن الكَلام تَسألني:

ـ هَل غَداً هي نَتيجَتُكَ !؟

سُررتُ ، انبلجَ صدري ، أَزهرَ قلبي ، انفلقَ نُوراً ، تَناثرَ بخوراً، ما أَجمل صَوتهَا الشَاحب ، مَا أَبهى نُورهَا الذي يَتدحرجُ من بين شَفتَيهَا ، شَهية كَقطعة فَراولة ، نَضجتُ في فُرن انتَظارهَا للجَواب ، أمسَكتُ يدَها ، هَذه أَولُ مَرة أُمسكُ يدَهَا ، إنهَا كَف كَآلة مبرد ، مُغمسة بالجراح ، عَميقة الخُدوش التي طَالتهَا ، رُبمَا كَانت قَاصدة ، أو لعَلهَا لم تَتَقصد جَرح نَفسهَا ، أَظافرٌ مهمشة ، و خَاتم زَواج يَكادُ يَسقُط من إصبعهَا ، يَقولُ ذاكَ المحبس الذي يُحبسُ به الزوجان في سجن وَاحد بأنَ كُلَ شَيء سَقط..

لم تَسقُط تلكَ الأُم بعَد أَتَيتُ لأَحملهَا في نهاية الطَريق ، لم يَفُتني الطَريق، ويا أسفاهُ عن من فَاتتهُ أُمهُ ولم يَحملهَا بكَف الرَعاية، مَغدورٌ به مسحوبٌ منهُ كُل النُور، إنهُ الظَلام بحد ذَاته، ولكن شَراييهَا تلتَحمُ مع شَراييني، أنَا من رَحمهَا و إلى رَحمهَا:

ـ نَعم غداً.. !!

يخترقُ وَجهها سَهمٌ يُحيي ابتسَامتهَا ، خلفَ تلكَ التَجاعيد تَعيشُ أَسئلة تُريد أَن تَبوحَ بهَا ، أو لعلها حكَاية.

كافة الحكَايات لهَا بدَاية إلا نبضٌ يَخفقُ لكَ..

مَا معني أَن يُخفقَ كُلَ شَيء لكَ و أنتَ مُتجمد حيثُ الخُلود في شُروخ الصخور ، أنتَ في الحَقيقة صَخرة كَامنة تَتضورُ خَوفاً ، تخشى أن تَستيقظ من سُبات أَحَلامك و قد طَارَ عَقلك ، لا يهم إن طَارَ أو حَطَ..

احذر أن تَفقد عَقلكَ و أنتَ تُناقضُ ذاتكَ ، يُقالُ بإنَ الذَات أمانة ، و وَضع الأَمانة في غَير مكَانهَا خيانة ، و إن أَمعنت النَظَر جَيداً ، نعم جَيداً ، سَتعرفُ أنَ أكثر شَخص قد خَسر هُوَ أنتَ..

لم تَعد تَخشَى من الخَسَارات ، بل تَخشَى من أَرباب الخسَارات ، من وَعدتهم أن تَكونَ كَما يُريدونَ ، سَعادةَ أب، وحَجة إلى بيت الله عَلى حَسَاب تَعبكَ و سهَركَ و حُلمكَ و مرسمكَ ، كُنتَ تُريد أن يَكونَ من حَولكَ مُجَردَ ألواناً تُغير مَلامحهم ، تُعلقَ مَشَانق لهم ، و تَقتلُهم بشطبة لون حتى تُدميهم و تُنهي آخرَ لَحظة لهُم مُعلقينَ على لوَحة يَرى حَقدكَ لهُم البَشَر ، ليقولونَ لكَ:

- وَااو .. مُبدع..

لأَنكَ تَعرفُ في قعر ذَاتكَ بأنَ إبداعكَ هُوَ كُرهٌ لهم ، لأنهُم قتلوا خَيالكَ و جَردوكَ من أَلوان بهَجتكَ ، و تَركوا لكَ لونَ الحدَاد و العَتمة و البَرد القَارص و الطَريق الطَويل الذي يُوصلكَ إلى مَطَامعهم..

تَباً لهُم مَاذا فعلوا..

الآن تُمارس قلبَ صَفحَات هي ليسَت لكَ ، صَفحات على غَير مَقاس مزاجكَ ، أَرقام لا تُقرأ أَبداً ، أنتَ تَقرأَ الضَباب، و هُمَ يَحصدونَ سُمعتكَ لكَي يُقالُ عنهُم:

- إن تربيهم رَائعة.. !

و قَلبُكَ يا جَمَيل الروح و الريحَان !، قَلبكُ يُمارسُ أشغالهُ الشَاقة، لأَنكَ مَحكومٌ عَليكَ بالمُؤبد، المُؤبد الصَعب المَحفوف بَالتعَب، غُرفتُكَ التي أَفرغُوها من أَشياء أُختكَ الطَبيبة ، هي ليست غُرفتكَ أَبداً ، وإنمَا هي نعمة البيت كَي تُصَاب بعدوى الذَكاء أو عدوى تكرار القواعد و تَرسيخهَا في دمَاغاكَ ، أَنتَ الآن في قمة الثَقة في نَفسكَ ، أَنتَ تعرفُ بأنكَ سَتجلب لهَذا البيت سَعادة تُريحهم و تُعكرُ كُل حَياتكَ، جميل أن تَكونَ طَبيبَ الخَيال، و لكنهم يُريدُونكَ أن تَكونَ طَبيبَ الحَقيقة ، بل حَقيقتهم السَوداء الخَالية من بهجتك..

عَليكَ أن تَتَطبع في ثُقب مَطَامعهم ، و تَبتسم للبرد و الحَر الذي ذُقتهُ في غُرفة دراستك ، حُرمت من النَوم و الراحة و الشوارع الوَاسعة و الطُبشور..

هَيا انهض إلى مُستقبلهم لا مُستقبلكَ!

على عتبة البنَاية الخَارجية تَجلسُ تلكَ الأُنثى التي تآكلَ جَسدهَا و ذَابَ عَظمهَا و رَق عَصبُهَا ، يَراهَا الناسُ أول مرة ، سنين طَويلة لم تَخرج إلى أحد و لم تَجلس على عَتبة البيت ، لَدَيهَا ثقة بالله بأنَني سَوفَ أُحضرُ نَتيجة تَأخُذهَا برحَلة إلى بيت الله الحَرام ، و حَدهَا كَبيت خَرب تنتظرُ من يُرممَ قَلبهَا ، تُغطي عينيها بكفهَا كَي لا تَدخُل خُيوط الشَمس إلى ظَلام قَلبهَا ، أُنثى انطفأت منذُ أن أُهينت و جُردت من كرامتهَا ، هَل حَقاً أنا الآن أستعيدُ لهَا قوتهَا و أَكسر ذَاكَ الجَبروت الذي جَعل منهَا خادمة في منَزل هُجرَ منهُ الحنَان.. !!

أُنثى ينقصُها جَرعة من الحنان كَي تَنبتَ مرة أُخرى ، لا تُريد أَن تَموتَ قَبل أَوانهَا ، و لكنَ مَاتَ كُل شَيء فيهَا ، فيهَا الذي جَفَ منهُ رَحيق الحُب وَظفتهُ إلى يَوم يَجعل الولدانَ شيباً ، أو أن يَرزقها اللهُ زيارة إلى بَيته العَتيق لتَشكو لهُ مَا كَانت تُضمرهُ في لحد صَدرهَا ، صَدرهَا يتَلاطمُ كالموج فيه غَضبُ أُنثى و غَضبُ الرَب ، و الرَبُ يُمهل و لا يُهمل ، و لا يُمكن أَن تَفوتهُ فائتة ، و لكن لا تُريد أن تَفوتهَا فرحة النَجاح ، اشتَرت من الدُكان سكاكر ، عندما رَآهَا جَارنَا صَاحب الدُكَان صُدم برؤياهَا:

ـ أين كُنت يا جَارة!

كَانت مَريضة ، تَذوبُ كَشمعة على نَار الظُلم و الجَبروت ، تَخشَى إن هَربت إلى بيت إخوتهَا أن تَعيشَ خَادمة لهُم ، فَفضَلت أن تَخدم أَولادهَا و تَمكثُ تَحتَ ظُلم الزوج على أن تَسمع من إخوانهَا كَلمة تُزعزع كَرامتهَا ، لم تَعُد تَسألُ عن كَرامتهَا أصابهَا فُتور في أَزقة القَلب ، و على مَوجة الصَدر اسمٌ مُرخم بالرُخَام أن لا تَقربوا هَذا المكَان ، و لكنهُ صَدرٌ يُعادلُ الكونَ برُمته..

شَهقت عندما رأتني مُبتسماً لهَا ، من بَعيد أُعجل المَشي إليهَا، هَذه المَرة الأُولى التي تَحتفل بنَجاحها هي لا أنَا ، لا يُهم من يحتفل بمن ، المُهم أن تَكونَ سَعيدة و تَعود كَما كَانت:

ـ بشر يا أُمي.. !

حضَنتُهَا بكُل قُوة ، شُعور غَريب دَخلَ إلى أَحشَائي ، حُلولٌ رَهيب اخترقَ قَلبي ، أَكادُ ألمسَ قفصَ صدرهَا ، عظَامهَا فارغة بلا لحم ، لم أَبكي فَرحاً على نَفسي بل بَكيتُ لأَجلهَا ، لَقسوة الحَياة عَليهَا ، لَلتعاسة التي التَهمتهَا و جَعلت منهَا بطارية فارغة من الشَحن لا تَسوى قشرة بَصلة:

ـ أَحضرتُ عَلامة تَامة..

أَطلقت من فمها زغاريد الفرح ، هَطَلت على خُدودها شَلالات الفَرح ، أو رُبمَا هَطلت بَسبب انسداد القنوات الدمعية التي لم

تُفتح بسَبب أتربة الحُزن و الأَسى ، تَبكي مثل الأَطفال الصغار ، الذي يَراهَا يقول بأنَني رسَبت و لم أَنَجح ، و لكن أنَا وَحدي الذي أَعلم لمَاذا تَبكي ، حُرقة الظُلم التي كَوت رُوحها ، أغبرة الاختناق التي جَردتها من أُوكسجين الأَمان ، مَنسية كَشَجرة تَين في بيت خَرب ، تُثمرُ وتُسقط و تُورقُ و تَكبرُ و لا أَحد يُلقي لهَا بالاً ، ألقت بقلبهَا على مَحراب الله ، نَطقَ لسَاني بوعد إن نَجحتُ و حَصلتُ على العلامة التي تُدخلني الطب بأن أَمُدَ لهَا الطريق إلى بَيت الله الحَرام..

حَرام أن تَراهَا بهَذه الحَالة قد أَرهَقها التَوسل بأعتاب الله ، لم تَكن تَتَوسل بالأَصل ، بل تُريدُ مَكَاناً أَطهر من هَذا البيت الذي يُنفثُ فيه دُخَان السجَائر و يُمَارسُ به الظُلمُ عنوة بسلاح كَاتم للصوت و اللون..

تهللَ وَجههَا ، علت على خَدهَا حُمرة فقدت من زَمَن بَعيد ، زَهرة و ذَبُلت في حَوض شَوك ، كُلنَا أشَواكَ و قد ظَلمناهَا ، لم تَكُن تُريد سَوى حَياة سَعيدة لنَا ، ستَائر جَديدة ، و كَنب نَظيف ، و غَسَالة أُتوماتيك ، و ثَلاجة أربعين مُكَعب ، فُرن يُوضَعُ به ثَلاثَ دَجَاجَات من أَجل أن نَشبع ، لا تُريد أن تُري أهلهَا بأن زَوجها قد قَصَر معها بشَيء ، تقطعُ عن فمهَا حَبة سُكر من أَجل

أن تُوفر عَليه تَعبهُ ، هَا هُوَ البيت كُل شَيء فيه مُهترئ و عَتيق كبئر مُعطلة و قَصر مشيد..

يَجتمعَ النَاس حَولهَا ، يُدققونَ في وَجهها ، أينَ كَانت مُختفية طوال هَذه السنين ! ، تُمسكُ الحَلوى و تَبدأ تُوزع على الأَطفال و المَارة ، و لا تَكفُ عن الزَغاريد ، لا تَكفُ عن البُكاء ، و لكَأنَ من ظَلَمَهَا انتقم اللهُ منهُ ، إنها أُنثى تَنسى و لا تَنسى..

لن تَنسَى و لن تَتَناسَى ، في القَلب غصَة ..

غَصة في قلبي و قلبهَا..

كَم كنتُ أتمنى أن أحمل مَرسمي على كتفي ، و أَلواني في حَقيبتي ، و خَيالي في أَروقة صَدري ، و أَركبُ النَقل الدَاخلي حَيثُ الجامعة ، ألتقي بفصيل من الجُنون يُشبهُ جُنوني ، جَميعُنَا مظلومونَ من قبل رجل يَتنفسُ ثَاني أُكسيد السَجَائر و يَنفثُ على مُستَقبلنَا..

هَا هُوَ ينَزل من السُلم إلى باب البيت الخَارجي ، جُموع من الناس تُبارك لي و تُقبلني و تُسَلم و تَهمُسَ و تَلمُزَ ، يَأتي أَمامي من صَنعني لاسمه:

ـ بشَر يا أبتي مَاذا حَصلتَ لنَا !؟

حَصلتُ لكَ مَا حَصلتهُ لنَا ، قَسوت فأثمرنَا، و حَركتَ فاحترقنا، وغضبتَ فَأرعبتنَا ، هَا أَنا أَمامكَ أَحملُ حُلمكَ وأُلقي بحُلمي و مَرسمي و أَلواني من عُلو شَاهق، صَنعتَ مني مَشرحة و أَموات بلا أسماء ولا ألوان ، مُتجمدة النبضَات من السُكون، تَنتظرُ آلة التَشريح، لا دمَاء تَسيل لا لون يَغرق، أنَا الذي أَغرق في كهنوت الموت مَعهم ، لي جسدٌ رَقمهُ خَمسة و عَشرون ، جسد بلا كَرامة و لا روح و لا نبض ، يُمزقُ تَارة و يُخَاطُ تَارةً أُخرى..

إنهَا حَياة أُخرى و لكَن بَلا حَياة ، إنهُ الرُعب الذي قتل في نَفسي ذَاكَ الإنسَان ، إنسَانٌ يَرسُمُ دَوَاءً و يُحيي مَيتاً و يُعيدَ الأرواح إلى مُستَقرهَا و قرارهَا..

إنهَا لَيست تَجربة . كَلا!

إنهُ مَوتٌ يَنبضُ موتاً ، أسمَاء تُبنى على تَعَاستنَا ، من أَجل أن يُقال عنا لدَينَا في الحَي طَبيب ، و لكن أبي ينتَظر نَتيجة جُلوسه على قُلوبنَا في البيت:

ـ لقد أَحضرتُ لكَ العَلامة التَامة..

بَكى الرُجل ، شَعرَ بالظُلم الذي لقنهُ لنَا ، نَظَرَ إلى أُمي يُريد أن يُبارك لهَا ، أَدارت ظَهرهَا ، جعلت نَفسهَا أَنها لم تَنتبه، رَكلة رُكنية و لكن لم تَدخل الهَدف ، إنَ قَانوَن المَظلومَات أنَ السَوط بالسَوط و الجُرحَ بألف جُرح و الحُزنُ قصاص..

تَركهَا أَبي ، كَانَت فرحتهُ مَكسورة تَمَاماً ، وَجههُ قد ظَهرَ عَليه التعَب ، مُتعب من القَسوة التي أَذاقهَا لمن يُحبها و يَبحث عن سَعَادتها ، الدكتاتورية في المنزل تحرق الحَنين في القُلوب ، تَجعل من أَهل البيت وُحوش يَقتتلونَ و لكن تحت مُسَمى الحَرب الباردة التي لا يسيلُ منهَا دَماً ، و إنمَا جراح الصُدور أقوى و أشدُ فتكاً ، إنهُ الوعد الذي أَطلقهُ عَلي يَنتظرهُ و يتربصُ به ،

تَذكرتين إلى السُعودية ، و تَكاليف كَثيرة لزيارة بيت الله الحَرام ، و سعادة مَصحوبة بتعاسة ، و عدم رضى و لكن بصمت..

الآن جَاءَ الدور ، انقلبَ السحر على السَاحر ، تنطبق القاعدة التي تُقول : نَتمسكَن قَبل أَن نتَمكن ، هَا قدَ تمكنا منهُ الآن ، جَاء دور القصَاص..

حُزمت الأَمتعة ، جُهزت القُلوب ، فيهَا أَحاديث و قصص وحكايات و أحداث مُعدة لتَقديمهَا لديوان الله ، يُقالُ بأنَ أَبوابهُ مَفتوحة للجميع ، لا يردُ سؤال سائل ، و لا يَطردُ من جَنابه أَحد ، يعطي كَمَا يَليقُ بعَطَائه ، و يمنح بلا بسبب ، السَبب الوَحيد الذي هُوَ أعلم به أنَ لا تَسأل عن السَبب ، بل عَليكَ أنَ تَشكُر المُسبب..

يقفُ أبي مُودعاً إيانَا ، كَأنَ مُغتصباً يَمنح الحُرية لمُغتَصبيه، يقفُ على باب القَفص ، يَفتح القَفص ، يُفلتُ أَجنحتنا المُبتلة بدمه للهَواء ، نَطير حَيثُ العُلو في طَائرة المَملكة العَربية السُعودية إلى جدة..

جدة أُم الرَخا و الشدة..

تَزولُ الشدة ، لَتبقى الأَرواح المُتعبة ممُتدة ، غُسلٌ نُطهرُ به أَجسَادنَا من سجن البيوت المُغبرة بالسجَائر ، و أغطية بيضاء

نَسترُ بهَا فَضائحنَا من كَرم الله و رَحمته عَلينَا ، هُوَ يعرفُ مَا بنَا ، دعانَا إلى مَائدة كَرمه..

لبينَا دعواه بصَوت في أَحشَائه ألفَ غَصة و جُرح:

ـ لبيكَ اللهُم لبيك ، لَبيكَ لا شَريكَ لكَ لبيك..

ـ إنَ الحَمد و النعمة لك و المَلك ، لا شَريك لكَ..

تَتَكأُ أُمي على سَاعدي ، تَسري في جلدي قَشعريرة تَهتزُ في خَلاخل النَفس ، تجتاحُ الدمَاء و العُروق و الأَعصَاب ، أَسمعُهَا بصوتهَا الخَافت تَقول:

ـ أَتيتُكَ من خَرائب الظَلم أشكو إليكَ مَا حَلَّ بي ، ألستَ أنتَ من قُلتَ ادعوني أستجب لُكم.. !

فرائصي كَانت تَرتجفُ من كَلامهَا ، تَغصُ بالكَلمات و الدَعوات ، لم نَصل إلى البيت العتيق ، و لكنَني كَأنَني أراهُ خَالياً فَارغَاً من الرُؤوس ، لا يَطوفُ به أَحد ، ينَتظرُ أُنثى كي تَنزلَ في رحابه..

نَصل إلى نُقطة النُور التي تَدورُ في فَلكها مليارات الأَجساد النُورانية ، تَهبطُ أَقدامنَا على رُخام الحَرم ، نَسيرُ و نَرتجفُ من هَول الحَر و البرد ، يُطلُ عَلينَا البيت المعمور ، يَكسوهُ السَواد المُقَصب بالذهب ، تَخلعُ أُمي ذَاتهَا يسيرُ القلبُ حافياً، أَسيرُ خَلفهَا ، تُناديه بروح مَمُزقة قد أُخيطت بخَيط رَديء:

ـ جئتُكَ من آخر حُدود الظُلم أَدعوكَ ، مُرتمياً بجَناب نُورك أن تُزيح عن قَلبي كُلَ غُمة ، و تُريحَ قَلبي من كُل ظُلمة ، و تُبعد عني ما يُؤذيني ، و تَجعل كَيد من كَادني في قَبره يَتلوى و يتَلظى..

يا إلهي..

مَا هَذه البلاغة التي انكبت من فمها.. !!

بلاغة المَوجوع ، و صَوت المَفجوع ، و أَنين المَحروم ، يَرزقهُ اللهُ بَلاغة و فَصاحة لو عُرضت على عنترة لجُنَّ جُنونهُ..

إنهُ الله الذي يسمع و يرى..

ومع كُل هَذا الغَوص في محراب الله و فَضله ، لا زلتُ أَقول هَذا ليسَ أنَا ، ففي آخر يَوم لنا في هَذا المكَان الذي شَفى أُمي من أَزمة الصَمت لا زلتُ أَقول:

أَنا مَاذا أَفعلُ هنَا..

مَسرور من أجلهَا ، سَعيد أَنا أَزحت جَبلاً من الهَم و الغم من صَدرهَا ، وضَعتُه في كَف من لا تَضيعُ عندهُ الوَدائع، ولكنهَا لم تَذكُر اسمَ أَبي ، هَل يَا تُرى كَانت تَخشَاني ، أو أَن يَفلت لساني أَمامَ أبي ! ، أَنا لستُ ثَرثاراً أَبداً ! ، هَل لا زَالت تَخشى أَبي أكثر من خَشيتهَا من الله ! ، و لما أَتت إذاً، أَقول في قلبي بأنَ هَذه التسَاؤلات لا تُهم ، فالمُهم أَنهَا مَسرورة ، و بدأت تَتَعافى ،

أصبحَ عندها صَديقات ثرثارات مُغتابات نمامات يَجلسنَ بعدَ كُل طَواف في أَحد أَروقة الحَرم ويبدأنَ فلم الضَجيج الذي لا ينتهي..
سَعيد لأَجلهَا ، حَزين على أَبي..
هَذا ليسَ أنَا..
حَمَلنَا حَقائبنَا و عُدنَا حيثُمَا أتَينَا ، حَيثُ البَيت بستَائره الرمَادية ، رَائحة السَجَائر التي لا تَتَوقف ، صَوت التلفاز المُزعج ، الأَوامر التي لا تَنتهي ، الجَرائد الباهتة ، عَناوين الصَباح و المسَاء و هَلمَ كسَر للقلب.. !!

هل استجاب اللهُ دَعوة أُمي.. !

لم نَجد أبي في المطَار ، لم يَستقبلنَا أَحد..

عُدنَا إلى المنزل بسَيارة أُجرة ، أَمر عجَيب ، صَوت قُرآن يَخرجُ من البيت ، و رَائحة قَهوة أَموات ، عمي عند بوابة البيت:

ـ الحمد لله على سَلامتكم ، و تَقبل الله عُمرتكم.. !!

أُمي تُريد أن تَعرف مَا يجَري في أَحشَاء هَذا البيت:

ـ مَاذا يَجري.. !!

عمي مثل أَبي ، ينفُثُ الدُخان في وَجه القدَر، ولكنَ القدر يَتولى الصَفع ، صَفع من يُريد أَن يصفع:

ـ أباكَ تُوفي ، و هَذا قبل سَاعة..

سَالت من عَيني دمعة ، أَبي مَاتَ قَهراً ، نَدمتُ على مَا صَنعتُ ، و عَاشَت أُمي من بعده مَلكة ، غَيرت كُلَ مَا في البيت ، أُرسلتُ بعَثة إلى لُندُن ، من أَجل حُلم كَان يُريدُه أَبي ، و مع أَنني:

هَذا ليسَ أَنا..

إلا أنني شبه سَعيد لأَن أَبي حَقق حُلمهُ..

و حُلمك.. !

حُلمي ذَهب في مجَالس الغيبة و النميمة التي تُديرهَا أُمي في منزل ابنهَا الدكتور ، فليسَ هُنَاكَ وقت من أَجل أحلام ، العيادة

ممتلئة بالمَرضى ، و أنا لا يُوجد عندي وَقت ، و لكن بالمُنَاسَبة..

تَفضل..

هَذا ليسَ أَنا.

أتمَمتُ رواية:

هَذا ليسَ أنَا

في بَلَد الحُرية و الديمُقرَاطية : النَمسا ، في عَاصمَة البيانو و الكَمنجَة : فيينا ، ظُهراً في منُتصف البحث

في مَقهى HORNIG ، في الحي السَابع..

السَاعة : 00 : 02

من تَاريخ : 4 / أغسطس.2018